

الدكتور
عبد الحميد القضاة

اختصاصي تشخيص الأمراض الجرثومية
والأمصال (بريطانيا)
مدير المختبرات التخصصية - اربد





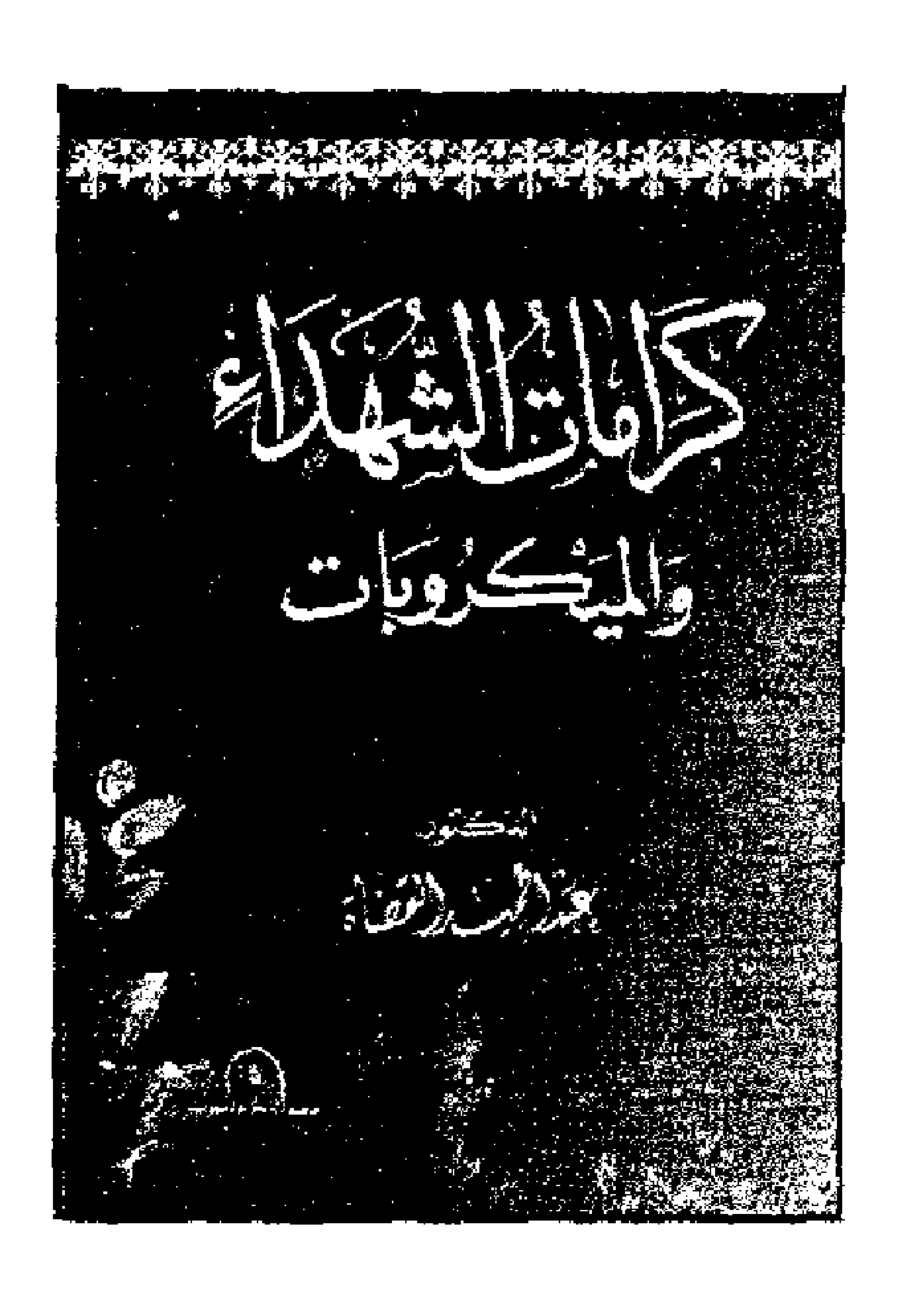
الدكتور

عبد الحميد القضاة

اختصاصي تشخيص الأمراض الجرثومية والأمصال (بريطانيا)

مدير المختبرات التخصصية - إربد





الإخراج الفني:
كمال عبده
تصميم الغلاف:
كمال عبده

• الطبعة الأولى •
١٤٣٠هـ
٢٠٠٩م



• الكتاب: **كرامات الشهداء والميكروبات**
• المؤلف: عبد الحميد القضاة
• قياس الصفحة: ١٤×٢٠
• رقم الإيداع: ٢٣٦٩١ / ٢٠٠٨
• الترقيم الدولي:
٧ - ٢٢٤ - ٣٧٧ - ٩٧٧

مركز الإعلام العربي
ص. ب ٩٣ الهرم - الجيزة - مصر
• هاتف: ٣٧٨١١١٩٣/٣٧٨١١١٩٤/ ٠٠٢٠٢
٠١٠٠٠٢٧٠٤٤ / ٠٠٢
• التوزيع: ٠٠٢٠٢/٣٧٤٤٥٤٥٥
٠٠٢/٠١٠٠٠٢٧٠٢٥
• فاكس: ٠٠٢٠٢/٣٧٨١١١٩٥
• البريد الإلكتروني:
media-c@ie-eg.com
mediacenter55@hotmail.com

القضاة، عبد الحميد. كرامات الشهداء والميكروبات/ عبد الحميد القضاة - الجيزة: مركز الإعلام العربي، ٢٠٠٨ ١٥٠ص؛ ٢٠سم
تدمك ٧ ٢٢٤ ٣٦٧ ٩٧٧
١- الكرامات (سمعيات) ٢- الشهداء أ. العنوان ٢٤٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ١٥٤).

وقال رسول الله (ﷺ): «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دُفعة، ويرى مقعده من الجنة. ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويُزوج اثنتين وسبعين من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه»(١).

وعن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) أنه قال: «جيء بأبي إلى النبي. أي شهيدًا يوم أحد. قد مُثل به، فوضع بين يديه، فذهبتُ أكشف عن وجهه، فنهاني قومي فسمع - أي النبي - صوت صائحة، فقال: «لم تبكين؟ فلا تبكي، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها»(٢)

وقال رسول الله (ﷺ): «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وأن له ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة»(٣)

---

(١) (أخرجه الترمذي، وابن ماجة).
(٢) (أخرجه الشيخان).
(٣) (أخرجه البخاري ومسلم).

يا له من تكريم إلهي اختص الله به الشهداء ليكون دليلاً على صواب الطريق، وصحة المسيرة، وهو اصطفاء واختيار من الله تعالى للمخلصين من عباده، فهم مكرمون في الدنيا والآخرة.. في الدنيا بحدوث بعض الكرامات لهم، والذكر الحسن، وفي الآخرة بالمنزلة الرفيعة في جنات الفردوس، وإنها لإشارات خير وبشرى، تطمئن قلوب ذويهم، وتشحذ همم محبيهم، مما يشوقهم ويشوقنا **إلى تمني الشهادة في سبيل الله.**

ومن كرامات الشهداء أن تبقى أجسادهم غضة طرية؛ لأن أرواحهم تتغذى من ثمار الجنة، وهذا ما يعلل رائحة المسك، ونزفهم للدم، ونمو اللحية، وتعرُّقهم، مع أن بعض الشهداء قد مضى على استشهادهم سنون وعقود وحتى قرون، وهو يعلل عدم تحلل الخلايا، وعدم اقتراب الميكرويات والحشرات والقوارض منها.

يقول الدكتور السويدان: (وقد حدثنا الشيخ محمود الصواف (رحمه الله) أنه دُعي فيمن دُعي من كبار العلماء لإعادة دفن شهداء أحد في مقبرة شهداء أحد التي أصابها سيل فانكشفت الجثث، يقول: من الجثث التي دفنت كان حمزة (رضي الله عنه)، فيقول: كان ضخم الجثة، مقطوع الأنف والأذنين، بطنه مشقوق، وقد وضع يده على بطنه، فيقول: فلما حركناه ورفعنا يده سال الدم).

وفي تعقيب الدكتور عبد الله عزام (رحمه الله) في كتاب آيات الرحمن في جهاد الأفغان على تلك الكرامات قال: «لقد كثرت الكرامات في العصور المتأخرة عنها في عهد الصحابة، وذلك لأن الكرامات يظهرها الله لتثبيت الناس في إيمانهم ووصلهم بربهم، ولكن ما للمتأخرين كرامة إلا وللمتقدمين خير منها».

ومركز الإعلام العربي إذ يسعد بنشر هذا الكتاب عن كرامات الشهداء والميكروبات للدكتور عبد الحميد القضاة، يتمنى أن يحيي في النفوس فريضة الجهاد الغائبة، ويكون خطوة على طريق النصر، واستعادة الأمة لمكانتها وسط الأمم، نسأل الله أن يرزقنا الشهادة في سبيله، مقبلين غير مدبرين، اللهم آمين.



تقديم

بقلم الدكتور: همام سعيد

المستشار الشرعي

في المستشفى الإسلامي - الأردن

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه، وبعد.

فشكر الله تعالى لأخينا المفضال، العالم الدكتور عبدالحميد القضاة، على هذا الجهد العلمي المتميز، فلقد قرأت الكتاب من أوله إلى آخره، دون كلل أو ملل، وعشت مع آيات الله في الأنفس والآفاق، حيث عوالم الميكروبات وغلبة هذه المخلوقات على الكون (البحار والأرض والفضاء). وكما هي نعمة الله في النباتات فأكثرها نافع، وقليل منها سام فيما يبدو لنا، ونعمة الله في الحيوان، فأكثره نافع، وقليل منه ضار فيما يبدو لنا، فكذلك الميكروبات، ما أكثر النافع منها وما أقل الضار، ولولا الله ثم هذه الميكروبات لامتلأت الأرض من الفضلات، وبقايا النباتات والحيوانات، ومن ذلك فعلها في جثث الآدميين.

ولقد لفت الدكتور القضاة أنظارنا إلى حماية أجساد الأنبياء والشهداء والعلماء من فتك الميكروبات؛ لأن الأنبياء والشهداء

أحيـاء، وكذلـك العلماء العاملـون. فقد حرَّم الله علـى الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء والشهداء وورثة الأنبياء.

والجديـد في هـذا الأمـر الـذي لفـت المؤلـف أنظارنـا إليه أن الميكروبات لا تحلل الجسـد البشـري خلال حياتـه؛ لوجود أجهزة المناعـة والدفاع، ولمـا كان الأنبياء والشـهداء أحياء كما قال الله تعـالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ (البقـرة: ١٥٤)، وقوله﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩).

فهاتان الآيتان تثبتان الحياة، وتنفيان الموت عن الشـهداء. ونحن نحمـل الألفاظ القرآنية على الحقيقة، فالشـهيد حـيٌّ حياة كاملة وليـس ميتًا. ومن هنا كان قدر الله تعالى بحماية أجسـاد الشـهداء والأنبياء من هجوم الميكروبات عليها.

بارك الله في الأستاذ المؤلف على هذا الجهد ونفع به.

تقديم

بقلم الدكتور أحمد الكوفحي

أستاذ الفقه وأصوله - الأردن

إنّ وجوه إعجاز القرآن الكريم المتعددة يُراد منها إثبات أنه كلام الله - عز وجل - وحده، وصولاً إلى الإيمان بالله وبصدق رسوله(ﷺ)، فيما يخبر عن ربه من وحي متلوٌ وغير متلو.

ولا شك أن أعظم هذه الوجوه ظهورًا هو الإعجاز العلمي الذي يتحدث فيه القرآن الكريم عن كتاب الله المنظور، بأسلوب يدفع إلى الإيمان لدى الجاحدين، وزيادة الإيمان لدى المؤمنين، فهو يفتتح الحديث عن حقائق العلم – في الغالب – بعبارة (ومن آياته)، ويختتمه تارة بعبارة (إن في ذلك لآيات)، يذكر بعدها صفات العلم أو العقل أو الفقه أو التفكر أو التدبر أو الذكرى أو السمع أو البصر ... إلخ، وتارة بأسلوب الاستفهام الإنكاري ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (نوح: ١٣)، (أفلا تعقلون؟!)، (أفلا تسمعون؟!).

والكتاب الذي نقدم له هو واحد من سلسلة بعضها مطبوع، وبعضها ما زال مخطوطًا، صدرت تحت شعار «العلم يدعو إلى الإيمان»، وهكذا يجب أن يكون العلم، وإلا فهو وَبَالٌ على صاحبه.

ومؤلفه الأخ المفضال الدكتور عبد الحميد القضاة جمع بين العلم والإيمان في فكره وتنشئته وسلوكه واهتمامه وحركته،

فهو داعية رباني، وعالم فذٌّ في مجال علم الجراثيم.

لقد أوقفنا هذا الكتاب على حقائق علمية مذهلة في عالم الميكروبات، وصحح لنا الفكرة نحوها، فليست في غالبيتها الساحقة إلا في خدمة الإنسان مباشرة أو من وراء ستار، وميّز بين أنواعها، وعرَّفنا بمهام كل منها، وأطلعنا على توزيع الأدوار بينها وتكاملها، ودورها في النبات والتربة وتهيئتها للغذاء، وأماط اللثام عن محاكاتها في صناعة البنسلين وغيره من المضادات الحيوية.

لقد تناول الكتاب المعلومة العلمية الجديدة بأسلوب شائق مبسط، يدفع القارئ إلى المزيد من المعلومات، وفهم المقصود، كما تناول الكتاب الشواهد القرآنية والنبوية، وأحسن استعمالها، وحقق أغراضها.

وفيما يتعلق بكرامات الأنبياء والشهداء، فقد خصها بنصيب وافر بعد أن أوضح دور الميكروبات في أجساد الأموات الآخرين ممن ليس لهم هذه الكرامة، وأحسن الاستدلال بالنص، وأيده بشهود إثبات من واقع الشهداء، كثرت فيها المرويات عن الثقات.

إنَّ الميكروبات تتعامل مع الأنبياء والشهداء وفق التصنيف الرباني لهم بأنهم أحياء، ولو فارقت أرواحهم الأجساد، وهذا يشوّقنا لتمني الشهادة في سبيل الله، وحمل مشروع الشهداء حتى ينجز، ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

فجزى الله المؤلف أحسن الجزاء، وأمدّ في عمره، وبارك فيه، وأفادنا من غزير علمه.

مقدمة المؤلف

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد.

فهذه شهادة صامتة، لكنها بليغة، بطلها جندي مطيع لربه، لا يتردد ولا يتأخر في التنفيذ... شاهد مفطور على الصدق، رغم أنه لا ينطق، شاهد جاد، يخاف الله رب العالمين، فيقوم بواجبه دونما كلل أو ملل، ودونما محاباة أو تَزَلُّفٍ ... يقوم بعمل عظيم جليل، رغم صغر حجمه وهوانه على الناس... فهو الشاهد الصادق الصامت بحق.

فشهادة الميكروبات للشهداء هي تكريم من الله - تبارك وتعالى - للشهيد أولاً، ولكنها عبرة بالغة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق: ٣٧).

فإن كان هذا فعل مخلوقات صغيرة مجهرية تجاه من صدقوا الله، وجادوا بأغلى ما يملكون، إرضاءً له وتمكينًا للأمة وتطهيرًا للمقدسات... فماذا فعلنا نحن المسلمين...؟

هل نشارك بالخذلان واللامبالاة... فنندم، ولات حين مندم... أم نبادر لإنقاذ أنفسنا أمام مليك مقتدر في يوم تشخص فيه الأبصار، وتشيب لهوله الولدان ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ

سَلِيمٍ ﴾. (الشعراء: ٨٨، ٨٩)؟!

فإن كنتُ محرومًا مما هم فيه، وعَجَزتُ أن أكون منهم أو معهم... فيا ويلتاه إن عَجَزتُ أن أكون شاهدًا ناطقًا صادقًا منصفًا لهم...! ويا ويلتاه إن عَجَزتُ أن أكون مثل مخلوقات الله غير العاقلة التي بعثها الله لتعلمنا الرحمة والوفاء لإخواننا...

ويا ويلتاه إن عَجَزتُ أن أكون سندًا لهؤلاء تقديرًا لعملهم وتكريمًا لشهادتهم، وسترًا لعورات تركوها وراءهم أمانة في أعناقنا... فيا لها من حياة رخيصة؛ إن عَجَزتُ أن أكون مثل ميكروب عامل بصمت، أو غراب عطوف يواري سوأة أخيه...!

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ (المائدة: ٣١).

والله نسأل السداد والرشاد والقبول... وحسن الخاتمة.



الميكروبات.. ما هي؟

هــي مخلوقات حية، مكونة من خليــة واحدة، صغيرة جدًا، لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة، إلا بعد تكبيرها آلاف المرات، تُقاس طـولاً أو عرضًـا بالميكـرون أو أجزائه[1]. هـذه المخلوقات المجهرية مبثوثـة في الكون بأعداد هائلة، ولا يوجد في ذاكرة البشـر أرقامٌ تحيـط بهـا، وهكذا تبقـى أعدادها من أسـرار قـدرة الله تبارك وتعـالى، إذ لا يعلـم أعدادها إلا الذي خلقهـا... ! وليس ذلك بمقدور البشر، مهما أوتوا من علم ومعرفة.

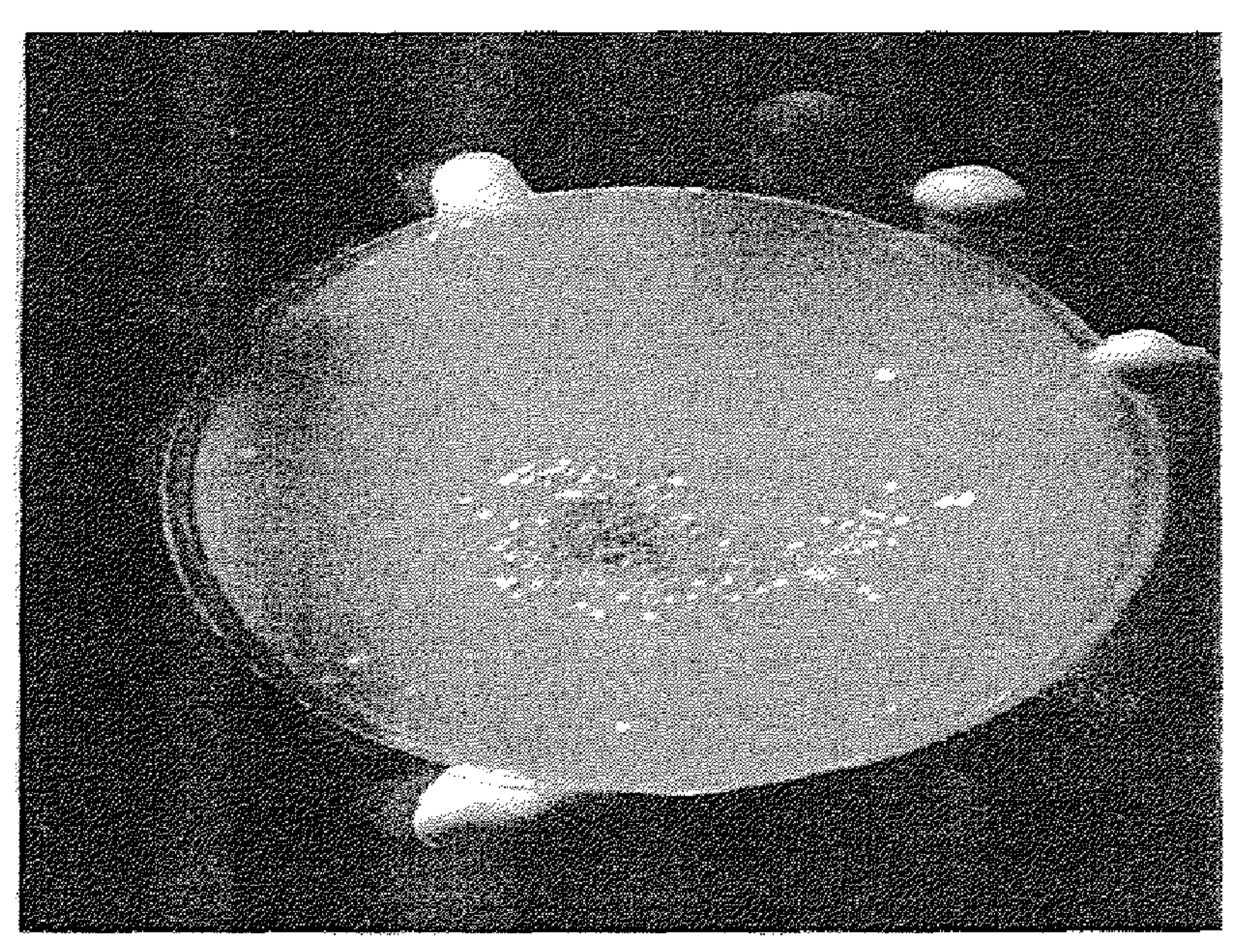
هــذه الميكروبات مختلفة الأنواع والأشــكال، فمنها ما يعيش علـى الفضلات من المواد العضوية، ومنهـا ما يتعايش مع المخلوقات الأكبر، على مبدأ المنفعة المتبادلة، وبعضها يتطفلُ على غيره مسببًا له المرض. هذه الأشكال من الحياة لا تكون فقط بين الميكروبات والحيوانـات الكبـيرة، بل توجد أيضًا بينها وبـين الديدان الصغيرة التي لا تكاد تُرى بالعين المجردة...!!

هــذه الجراثيـم... رغـم أنها وحيـدة الخليـة، وأن خليتها أصغر بكثير مما نتصور، فإنها تستطيع أن تقوم بكل العمليات الحيوية،

(١) كلمة ميكروبات مأخوذة من كلمة إنجليزية Microbe، وتعني أي مخلوق مجهري صغير جدا لا يرى بالعين المجردة، وأصبحت شائعة، ميكروب وميكروبات ويرادفها جرثومة وجراثيم (المنجد). وتقاس بالميكرون، وهو جزء من المليون من المتر. وهذا الميكرون مقسم أيضًا إلى ألف نانومتر، تستعمل لقياس الميكروبات الأصغر مثل الفيروسات.

مـن تنفس وتمثيـل للطعام والشـراب والبناء والتكاثـر، لدرجة أن الخليـة الواحـدة منها إذا أعطيت الطعام اللازم والحرارة المناسـبة، تصبح ملياراً خلال عشـر سـاعات لا غير..! وهـي لا تعرف الهَرَمَ، بل تستمر بالنمو والانقسام دونما ملل أو كلل.

هذه الجراثيم تعيش مع بعضها على شـكل مستعمرات صغيرة نسـبيًا، والمسـتعمرة الواحدة ربما تحوي ما بين عشـرة إلى عشرين مليـون جرثومـة، ومع هـذا فحجمهـا لا يتجاوز حجم حبـة العدس العادية (شـكل رقم: ١).



شكل رقم (١): مستعمرات جرثومية.

ومنها ما لا يسـتطيع الحياة بوجود الأوكسـجين (اللاهوائي)، ومنها ما يسـتطيع العيش في البحر الميت رغم ملوحته العالية، ومنها ما يستطيع العيش في درجات حرارة عالية، فيتكاثر في درجة حرارة ١١٣مْ، ويمـوت بردًا إذا انخفضت إلى ٥٥مْ (٥٥ فوق الصفر)، ومنها

ما يتكاثر في درجة حرارة ١٧مْ تحت الصفر[1].

فهي مخلوقات عجيبة الأطوار، مختلفة البيئات، متباينة المتطلبات، كل نوع هيأه الله تعالى ليعيش في ظروف مختلفة عن الآخر. وهذا سر وجودها في كل مكان، وقد وجدت في الأرض على عمق آلاف الأمتار، وفي الجو على ارتفاع عالٍ جدًا.

والميكروبات منها المتحرك بذاته، بواسطة سوط أو أكثر، يتحرك بها هربًا من عدو أو بحثًا عن رزق، ومنها المتحرك من دون أسواط، محمولاً على غيره من المخلوقات الأخرى، أو على ذرات الهباء المتطايرة في الهواء، كما أن بعضها سريع الحركة، لدرجة يصعب اللحاق بها، وهي تمر أمامك تحت المجهر، وهي أشبه بحركة النجم إذا هوى (Star shooting) كجرثومة مرض الكوليرا.

هذه الميكروبات المتباينة في الشكل والطول والعرض، متنوعة أيضًا في الإمكانات والقدرات، والمتطلبات الحياتية، فمنها ما هو بكتيري، ومنها ما هو فطري، أو خمائر أو طُفيليات، وأصغرها على الإطلاق هي الفيروسات. ومن عجائب قدرة الله تعالى، أن بعض هذه الفيروسات مفيد للإنسان، وذلك من خلال تدميرها لبعض أنواع البكتيريا الضارة به...!

كذلك فإن بعض هذه الميكروبات شديد الحساسية، يموت

(١) راجع كتاب «عجائب الميكروبات السبع» للمؤلف.

من الجفاف، أو من أشعة الشمس، أو من أي من المطهرات، ولو كانت بسيطة. ومنها ما هو مقاوم لها، لا يتأثر بها، بل يستمر في نموه وتكاثره، مستعملاً المطهرات كغذاء له[1]، ومنها ما يتكيس لسنين طويلة حتى تتهيأ له ظروف مناسبة، للعودة للنشاط والتكاثر.

ويُذكر أن ٣٪ من الجراثيم، التي عرفها العلماء إلى الآن، هي التي تسبب للإنسان سلسة الأمراض الفتاكة المعروفة، مثل الكوليرا والتيفوئيد والدزنتاريا والجدري والأنفلونزا والسفلس... إلخ، وأن ١٠٪ من الجراثيم المعروفة تنتهز فرصة ضعف جهاز المناعة عند الإنسان، فتهجم عليه، وتسبب له مرضًا، أو التهابًا عابرًا، كالذي يحدث لمريض الإيدز.

كما أن هناك مجموعة من الميكروبات المختلفة تسبب أمراضًا للحيوانات، ومنها ما ينتقل للإنسان، كالحمى المالطية، وأنفلونزا الطيور، والسل وغيرها، وهناك مجموعة من الجراثيم البحرية، التي تسبب أمراضًا لحيوانات البحر المختلفة. ومثل ذلك ما يسبب أمراضًا بكتيرية، أو فطرية، أو فيروسية للنباتات والمزروعات على اختلاف أشكالها. ورغم هذا تبقى الغالبية العظمى من الجراثيم غير مضرة بالإنسان، بل مفيدة له، بحيث لا تستقيم حياته على وجه الكرة الأرضية إلا بها...!!

هذه الجراثيم المختلفة، عندها الكثير من الحيل والإجراءات

---

(١) مثل جرثومة السيدوموناس في المستشفيات.

الوقائيــة، وطرق التملص والتخلص من الصعــاب، التي تواجهها في الطبيعة، أو من الأشــراك التي تُنصب لها قصدًا من قبل الإنســان، كمــا أن عندها ما يحفظ عليها حياتها واســتمرارها، وانبثاثها في كل زوايا الكون، التي وصل إليها الإنســان، فهي مخلوقات تحب الحياة كما نحبها نحن. ولهذا لديها من المهارات ووسائل الدفاع عن نفســها، ولحماية جنســها من الانقراض، ما يبهــر العقول ويُحيرها. وإخال أن كثيرًا من الممارســات البشــرية في هذا المجال، قد أُخذت مــن مثل هذه المخلوقــات الصغيرة، الــتي تتجلى فيها قــدرة الخالق تبارك وتعالى[1].

هذه الميكروبات مبثوثة في كل مكان على شكل مجموعات، بل أمم مختلفة. كل نوع إذا اســتقر في مكان، أفرز مادة كيماوية في محيط وجوده، لا تضره، ولكن تقتل غيره من الأنواع الجرثومية الأخــرى، إذا حاولــت الاقتراب من محيطه، أو احتــلال البقعة التي يعيــش عليهــا. وكأن هــذا النوع يضرب ســياجًا علــى منطقة يريد الانفراد بها، ولا يريد أن يشاركه فيها أي ميكروب من نوع آخر، وقوام هذا السياج مادة كيماوية قاتلة لأي متسلل يحاول اختراقه[2].

هذه المــواد الكيماوية التي تفرزهــا الميكروبات على اختلاف

---

(١) راجع كتاب عجائب الميكروبات السبع - للمؤلف.

(٢) يذكر أن الأسد في غابته يحدد دائرة ملكه الخاصة ببوله، فلا يجوز لأي حيوان مــن غــير عائلتــه الدخول إليهــا أو العيش فيهــا، تحت طائلــة العقوبــة القاتلة في معاهــدة صامتــة بلغــة متفاهم عليهــا فطريًا بين هــذه الحيوانات، فســبحان الله أحسن الخالقين.

أنواعها، هي ما نسميها بالمضادات الحيوية القاتلة للجراثيم. وقد سخر الله هذه الميكروبات للإنسان تمامًا كما سخر له النحل ليستفيد من عسله، فقد عرف الإنسان هذه الأنواع المختلفة من المواد الكيماوية، وحدد أنواع الميكروبات التي تفرزها، والنوع الذي تقتله، وقنن استعمالها حسب تجارب مخبرية مختلفة، واستفاد منها الإنسان أيما فائدة، منذ أن اكتشف العالم الإنجليزي «ألكسندر فلمنغ» سنة ١٩٢٨م - في لندن - أول مضاد حيوي، وهو البنسلين[1].

وعلاوة على ما تقدم، فهذه العوالم، من الميكروبات الصغيرة، فيها من أسرار الذكورة والأنوثة ما يخلب الألباب. فهي على صغرها فيها الذكر، الذي تنمو عليه شعيرات، من بينها شعيرة طويلة اسمها شعيرة الجنس، وبعد الفحص تحت المجهر الإلكتروني الذي يكبرها عشرات آلاف المرات، وجدت أسطوانة مجوفة، تنتصب عند الحاجة، لتدخل في مكان محدد من جسم الأنثى، وتنتقل من خلالها مادة وراثية معينة للأنثى... لتصبح بعدها ذكرًا وتنمو على جسمها الشعيرات الخاصة بالذكورة... وغير ذلك الكثير، فسبحان من قال في محكم كتابه: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يس: ٣٦).

---

(١) عزل الكسندر فلمنج - الحائز على جائزة نوبل - مادة البنسلين من ميكروب من مجموعة الفطريات اسمه «Penicillum notatum» ورد في كتاب عالم المعرفة رقم ٢٤٥ «ضرورة العلم» تأليف ماكس بيروتز.

مستودع الميكروبات الرئيس

المستودع الرئيس للميكروبات، على اختلاف أنواعها، من بكتيريا وفطريات وطفيليات وفيروسات وغيرها هو الأرض. فلا نجد ذرة من تراب جاف أو رطب، أو قطعة من حجر صغير أو كبير، على سطح الأرض، أو في باطنها، إلا وفيه أعداد هائلة ومدهشة من الجراثيم المختلفة.

هذه الجراثيم وأعدادها في الأرض لا يمكن للبشر حصرها، فهي سريعة التكاثر، وهي في منطقة ما تختلف أعدادًا وأنواعًا عن منطقة أخرى، تبعًا لمكونات المنطقة الترابية، ووفرة المواد الغذائية والماء والأوكسجين. وقد حاول العلماء تعداد ذلك، كما ذكر البرفسور وكسامان في كتابه «جراثيم التربة»، وقد وجدوا أن في الجرام الواحد من التراب الجاف، على عمق إنش، ثمانية ملايين جرثومة حية، أما الميتة فربما كانت أكثر عددًا. وفي الجرام الواحد على عمق أربعة إنشات ستة ملايين جرثومة حية، وهكذا. أما التربة الرطبة المملوءة بالمواد الغذائية المتحللة، والعناصر المعدنية، فهذه الملايين تنقلب إلى مليارات في الجرام الواحد من التراب...!!

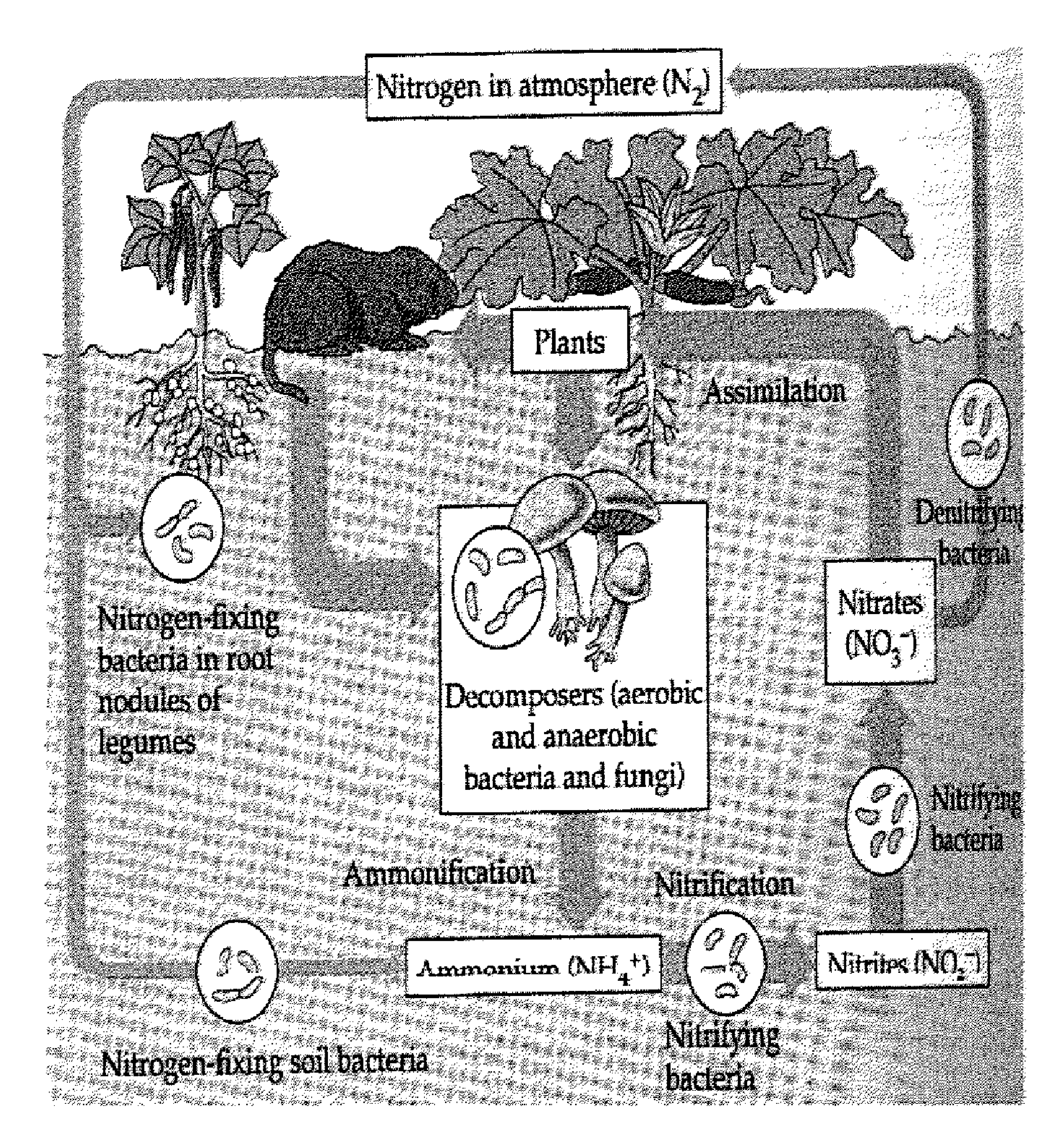
وهذه الميكروبات لا تعمل على تماسك ذرات التربة بعضها مع بعض فحسب، ولكن لها دور أكبر، بل أدوار حيوية لا تستقيم الحياة فوق هذا الكوكب ولا تستمر إلا بها، خاصة فيما يتعلق

بـدورات العناصر الحيوية في الطبيعة، مثل النيتروجين، والكربون والأوكسجين، والكبريت، والفوسفور وغيرها.

وخير مثال على ذلك دورة عنصر النيتروجين الحيوية، وما للميكروبات من دور رئيس في ذلك. فالنيتروجين الحر الموجود في الهواء[١] تلتقطه بكتيريا متخصصة في ذلك، وموجودة في التربة اسمها البكتيريا المثبتة للنيتروجين، وهي أكثر من نوع، فمنها ما يثبت النيتروجين في العقد الموجودة في جذور البقوليات، لتساعدها على النمو. ومنها ما يحول النيتروجين الحر إلى أمونيوم ($NH4+$) في التربة، هذه الأمونيوم لا تصمد طويلاً، حيث يتدخل نوع آخر من البكتيريا المختصة؛ لتحويلها إلى نترات ($NO2-$)، ثم إلى نايتريت ($NO3+$)، وهـذه تُعَدُّ من الأسمدة المحببة للنباتات بشكل عام، حيث تتغذى عليها لبناء أوراقها وأغصانها وثمارها. وقسم منها يتحول إلى نيتروجين حر، ينطلق في الجو، بفعل نوع آخر من البكتيريا، يعمل عملاً معاكسًا للأول (الأول يثبت والآخر يحرر)، انظر شكل رقم (٢).

---

(١) يتركب الهواء من العناصر الغازية الرئيسية التالية : النيتروجين = ٧٨,٠٥٤٪ الأوكسجين ٢٠,٩٤٧٪، والأرغون ٠,٩٣٤٪، وثاني أكسيد الكربون ٠,٠٣١٤٪.



شكل رقم (٢): دورة النيتروجين في الحياة.

إنّ النباتات بأوراقها وأغصانها وثمارها تتغذى عليها الحيوانات، لتهضمها وتستفيد من مكوناتها، لبناء أجسامها ولحومها وشحومها، وهي بدورها إما أن تكون غذاءً للإنسان أو تموت. وهذه النباتات أو الحيوانات الميتة تتناولها أنواع أخرى من الميكروبات الهوائية، واللاهوائية (بكتيريا وفطريات متنوعة) الموجودة في التربة، لتحللها إلى مكوناتها الأصلية ومنها النيتروجين الذي يتحول بفعل البكتيريا إلى أمونيوم (NO4+)، وهكذا تستمر الدورة الحيوية لهذا العنصر المهم إلى ما شاء الله...

فســبحان الذي أوجد هذه المليارات مـن الميكروبات، وبثها في التربـة، كلٌّ لـه تخصص، يقوم بجزء من العمـل ليكمله آخر، في تتابع دقيق لا يعلمه إلا الذي لا تخفى عليه خافية.

فلـو بقي النيتروجـين محجوزًا في الهـواء، لماتـت النباتات؛ لأنه عنصـر لابد منه للنمـو. وإذا انقطع النبات، تأثـرت الأنعام وماتت، وإذا فنيـت النباتـات والأنعام الـتي يتغذى عليها الإنسـان... فكيف تستمر حياته...؟!

ولـو بقـي النيتروجين مثبتًـا بالتربة، لنقصت نسـبته في الهواء، واختـل التـوازن الغـازي فيـه، واضطـرب التنفـس، وتأثـرت كل المخلوقات، ولو لم تكن أنواع مختلفة من البكتيريا، كل مختص بجزئيـة، لا يتعداها في موضوع التعامل مـع مركبات النيتروجين، تثبيتًا وتحويلاً وإطلاقًا؛ لبقي في التربة على شكل واحد، لا تستقيم معه الأمور... فسـبحان الذي خلق كل شـيء بقـدر، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

هـذا عنصر من عناصر مختلفة، خلقها الله (ﷻ) بتوازن بديع، ونسب لا تتغير ولا تتبدل، وجعل في الأرض مخلوقات دقيقة لا نراها، تقوم على خدمتنا، وبثها في كل مكان، وأودع في كل ميكروب منهـا مقـدرة معينـة، ووظيفـة معيَّنـة، وهـداه لكيفيـة تنفيذها. فميكـروب النيتروجين لا يتدخـل بعمل ميكروب الكربون، كل يقوم بواجبه حسـب تخصصه، دون كلل أو ملل، وبصمت وهدوء، عبادة وتسبيحًا للواحد الأحد.

المستودعات المتحركة!!

يُعَدُّ كل مخلوق كبير، مرئي بالعين المجردة، مستودعًا متحركًا لأنواع عديدة من الميكروبات. ابتداءً من الدودة الصغيرة إلى الفيل الكبير. فلا يوجد مخلوق منها أو بينها معقمًا من الناحية الجرثومية، والفارق الرئيس هو مساحة الجلد، حيث تزداد الميكروبات عددًا على الجسم تبعًا لمساحة جلده.

هذه الحيوانات تحمل على أجسادها مليارات المليارات من الميكروبات المختلفة. ولو مد الله بصر الإنسان، واستطاع أن يرى هذه الميكروبات، لرأينا أجسام الحيوانات، وكأنها غطيت بطبقة من الدقيق الأبيض، ولن نجد ولو مليمترًا واحدًا خاليًا من آلاف الميكروبات على جلودها. أما ما بداخلها فهو أكثر عددًا، وأعقد تعايشًا.

هذه الحيوانات، بل المستودعات الفرعية المتحركة، تبث ميكروباتها بالمليارات، في كل مكان، من خلال لعابها أو بُرازها أو بولها أو بواسطة تنفسها... إلخ، فهي تتلوث يوميًا بميكروبات التربة من جهة، وتلوث الهواء والماء والتراب بجراثيمها المختلفة في كل حين، من جهة أخرى.

فالهواء بما يحمل من ذرات ترابية، ومتعلقات غير مرئية، يحمل أعدادًا كبيرة من الميكروبات، حيث ذكر العلماء أن الإنسان

يأخذ مع كل نفس ما معدله ستون ألف ميكروب. أما في أماكن التلوث والاكتظاظ البشري أو الحيواني، فالأرقام أكبر بكثير. والعطسة الواحدة تنفث في الهواء أعدادًا هائلة من الجراثيم...!!

وهكذا الماء، فله جراثيمه الخاصة، علاوة على تلوثه المستمر، من مخلفات الحيوانات والإنسان، التي تسبب أحيانًا بعض الكوارث الطبية، بما تنقله من أمراض جرثومية معدية كالتيفوئيد، والكوليرا، والدزنتاريا، وغيرها الكثير.

فإذا أخذنا مثالاً واحدًا من هذه المخلوقات الكبيرة، وليكن أنظفها وهو الإنسان، لوجدنا فيه ما يستدعي الحيرة والعجب، إذ يعيش على جلده أكثر من عشرين مليار جرثومة.

يذكر الدكتور (كلقمان)(1)- المختص بالجراثيم - أن جلد الإنسان بما عليه من ميكروبات مختلفة، ولما فيها من تباين في الشكل والمتطلبات، وما بينها من العداوات والحروب، أو الصداقات والتعاون، أشبه ما يكون بالكرة الأرضية، وما عليها من مخلوقات كبيرة وصغيرة، وأمم مختلفة لونًا ولغة ومعيشة، وما بينها من اختلافات جغرافية وحروب ومعاهدات. كما ذكر العلماء أن السنتيمتر المربع الواحد من جلد الإنسان يوجد عليه ما بين مليون إلى خمسة ملايين ميكروب. وبما أن معدل مساحة جلد الإنسان

(1) The Bacteriology of normal skin, by Kligman, in Skin bacteria and their role in infection. 1965.

٢م٢ [1] فإن الواحد منا يحمل على جلده ما بين عشرين إلى مئة مليار جرثومة ، تســرح وتمرح وتأكل وتشــرب وتتكاثر على جلودنا دون علمنا أو شعورنا...!

أمــا فم الإنســان، ففيه العجــب، فقد وجد العلمــاء أن الجرام الواحد من اللوحة المتكونة على ســطح الســن فيها ما معدله مئتان وخمســون مليارًا من الميكروبات، ورغم أن الإنسان يفرز يوميًا لترًا ونصــف اللتر من اللعاب المعقم في فمــه، إلا أن المليلتر الواحد يحمل ما معدله ســبع مئة وخمســون مليــون جرثومة، حــال تلوثه بما على الأسنان، وهذا الرقم يزداد إلى سبعة أضعافه بعد النوم.

وما ســبق مــن أرقام تتضاءل أمام حقيقــة جراثيم الأمعاء، التي تقــول: إن الجرام الواحد من براز الإنســان العــادي، فيه أكثر من ألــف مليار جرثومــة...! وهي في معظمهــا (٩٦-٩٩٪) ميكروبات لا هوائية، وتشــكل ٣٠٪ من وزن البراز عند الإنسان العادي[2].

هذه الجراثيم تتعايش مع الإنســان ما دام حيًا، ولا يحدث بينها وبين قوات جهاز المناعة إلا ما يشــبه المناوشــات البســيطة، لا تلبث أن يُسَــيْطَرَ عليهــا وتهــدأ، وفي غالــب الأحيان يحصل تبــادل منفعة كتقديم بعض الفيتامينات للإنسان.

هذا مثال للإنسان، وهو المخلوق الأنظف، الذي يعي الكثير من

(1) Clinical dermatology, by J. Hunter, J. Sauin and Mark dahl 2002.
(2) Medical Microbiology, 20th edition by Jawetz etal 1995.

هذه الحقائق العلمية، ويتعامل معها بما يخفف من هذه المليارات الهائلة، وسخر الله له الكثير من المطهرات، والمنظفات، وطرق التعقيم...! وفوق هذا وذاك، يوجد عليه وفيه هذه الأعداد المذهلة... فكيف هي الحال إذن مع الحيوانات الأخرى، كالفيل والحصان والحمار والبقر...!!

هذه المستودعات الفرعية، هي بحق مخازن جرثومية متحركة، تبث محتوياتها في كل مكان مع برازها وبولها ولعابها، بل ونَفَسِها دون أن تحس بها، بل دون أن نحس نحن البشر بها، رغم ما أعطانا الله من عقل وبصر وبصيرة، فالميكروبات – على صغرها – مخلوقات تحمل من أسرار الخالق، وعظمته، وقدرته، ما يأسر العقول، ويُحيِّر الألباب، فسبحان من خلقها، وبثها، وسخرها، لخدمة الإنسان.

الوظيفة الكبرى !!

قليلـون هم الذين يعملون الخير في الخفـاء بصمت وهدوء... من يراهـم للوهلة الأولى لا يحسـبهم قادريـن على شـيء... إلا إذا أمعن النظر فيهم، بفراسة المؤمن التي لا تخيب... ورغم قلة هذا النفر، فإن التقدم والتطور والنماء والإنتاج، بل والإبداع كله، في هذه الحياة، يكون بسبب إخلاصهم، وثمرة أفعالهم وتضحياتهم الصامتة...

وعندما نراقب المخلوقات الأخرى من غير البشر، نجد أن كلاً قد علـم صلاته وتسـبيحه... فالكل يعمل بصمت وهـدوء وتعاون، كلٌّ خلق لوظيفة معينة... يقدم لها جُلَّ طاقته... وكلما تدرجنا نزولاً في السـلم البيولوجي للمخلوقات، تتعمق هذه الصورة الجادة في أداء الواجـب، حتى إذا وصلنـا إلى عالم اللامرئيات مـن الميكروبات، وجدنا الأداء الأمثل...!

فالوظيفـة الكـبرى للميكروبـات - على اختـلاف أنواعها - هـي تحليل المـواد إلى مكوناتها الأساسـية، وإعادتها إلى الأرض، المسـتودع العظيم الذي لا يمتلئ[1]. هذه الوظيفة ليسـت جديدة ، بل قديمة قدم الحياة على هذه الأرض، فقد قدمت الميكروبات خدمة للبشـرية بهدوء بالغ، بأن حللت المواد العضوية في الأزمان السـابقة، وحولتها إلى طاقة على شكل بترول، أو غاز الميثان في باطن الأرض.

---

(١) ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾..(المرسلات: ٢٥-٢٦)

وما زالت الخدمة مستمرة، وستبقى - بإذن الله - حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ لأنها سنة من سنن الله في الكون، حيث لا تستقيم الحياة بغيرها...!!

هذه الخدمة العظيمة المهمة، التي جرت دون توقف على مدار الزمان والمكان، لم يعرفها الإنسان إلا في القرون المتأخرة، ولم يعرف أبطالها إلا حديثًا، فالميكروبات بأنواعها المختلفة، وأشكالها المتعددة، هي اللاعب الرئيس، والفاعل الحقيقي في هذه العملية المهمة، وهي لا تُبقي ولا تَذَر، تلتهم ما تجده في طريقها، وسرعان ما يظهر منها من يكيِّف نفسه للعمل، إذا ما تغيرت الظروف لسبب أو لآخر، وفي الميكروبات من التنوع والقدرات العجيبة ما يلائم كل مادة قابلة للتحلل...!

والمعادن على اختلاف أنواعها، لم تسلم من الميكروبات، فلكل معدن ميكروب معين، بل ميكروبات، فهذا يؤكسد وذاك يختزل. ويزداد التآكل والتحلل بازدياد الرطوبة وفعل الزمن، خاصة بغياب المواد الحافظة، والمانعة لنمو الجراثيم، التي توضع على هياكل السفن، أو الأنابيب عامة والبحرية خاصة.

وقد عرف العلماء حتى الآن أكثر من خمسين نوعًا من البكتيريا[1] والفطريات، التي تسبب تآكل المعادن المختلفة،

(1) Biocorrosion website. interact@port.ac.uk - updated July 2002

وتحللها. ولهذه العملية على أهميتها انعكاسات سلبية كبيرة، على الاقتصاد والصحة والسلامة العامة، ولما لذلك من أثر مدمر، فإنها تتطلب جهودًا متواصلة وصيانة دائمة، لأنابيب النفط، وشبكات المياه، ووسائل الملاحة البحرية عمومًا.

هذه الميكروبات المنتشرة في كل مكان - وخاصة البحار وشواطئها - تعمل منفردة، أو تتشارك مع غيرها في إحداث الصدأ، وهذا يؤدي بدوره إلى ضيق الأنابيب واهترائها وتآكلها... فتتسرب محتوياتها النفطية أو الغازية أو المائية.. ويترتب على ذلك خسارة مادية وعواقب مخلة بالسلامة العامة[1].

أما الدكتور (لونابيج) - أستاذ علم الجراثيم، في جامعة (بورتس ماوث) في بريطانيا، ورئيس اللجنة المنظمة للمؤتمر العالمي، الذي عقد في تموز عام ٢٠٠٣م، لبحث مشكلات التآكل المعدني الحيوي، بسبب الجراثيم[2] - فيقول: «رغم كل المؤتمرات السابقة، والبحث المستفيض في موضوع التآكل، والتحات، وميكروباتها، فإننا لم نستطع حتى الآن الوصول إلى حلول منطقية، غير مؤذية للبيئة، ولا مخلة بتوازنها الحيوي الجرثومي».

أما موضوع الأشجار بأخشابها وأوراقها، التي تتساقط في الخريف

---

(1) Lewan dowski, l and A. Hamilton.Mic of Stainless Steel as model system to study metal-microbe interactions corrosion.114.2002-

(2) “Biocorrosion covers any corrosion caused by microorganism”

بمليـارات الأطنان سـنويًا[1] ، ثم بقايا المزروعات كالهشـيم، وبقايا الحصيـد، وغيرها الـتي تبقى على سـطح الأرض بعـد الانتهاء من موسمها وناتجها، فأين تذهب في كل عام..؟ وما هو مصير مليارات الأطنان منها سنويًا يا تُرَى..؟

لقـد عـرف علمـاء الجراثيـم - ولاسـيما المختصـون بجراثيم التربة - آلاف الأنواع من الميكروبات الموجودة فيها؛ لأنها المسـتودع الرئيـس للجراثيـم، وأهمها الفطريـات، والبكتيريـا والطحالب، والطفيليات، والفيروسـات، وغيرها. بأعداد كبـيرة جدًا، يصعب حصرهـا، تصـل إلى المليـارات، وتختلف من مكان لآخر، حسـب الرطوبـة والمواد المكونة للتربة، ولهـا أدوار يكمل بعضها بعضًا في الحيـاة، وقد وجدت في أعماق متفاوتة في باطن الأرض، وليس على سطحها فحسب.

هذه الجراثيم تعمل على حفظ التربة، ولها أدوار حيوية جدًا، لا يمكن أن تسـتقيم الحياة بغيرها، وتتمثل في تحليل المواد العضوية، من جـذور وبقايا نباتات، وأخشـاب، وأوراق، وأجسـام الحيوانات الميتـة، وكذلـك الجثث البشـرية، وفضلات الإنسـان، ومخلفاته المختلفة.

وبهـذه الوظيفة المهمة والحيويـة للميكروبات، تكتمل دورات

(١) يوجد في العالم ٣٥ مليار دونم من الغابات.

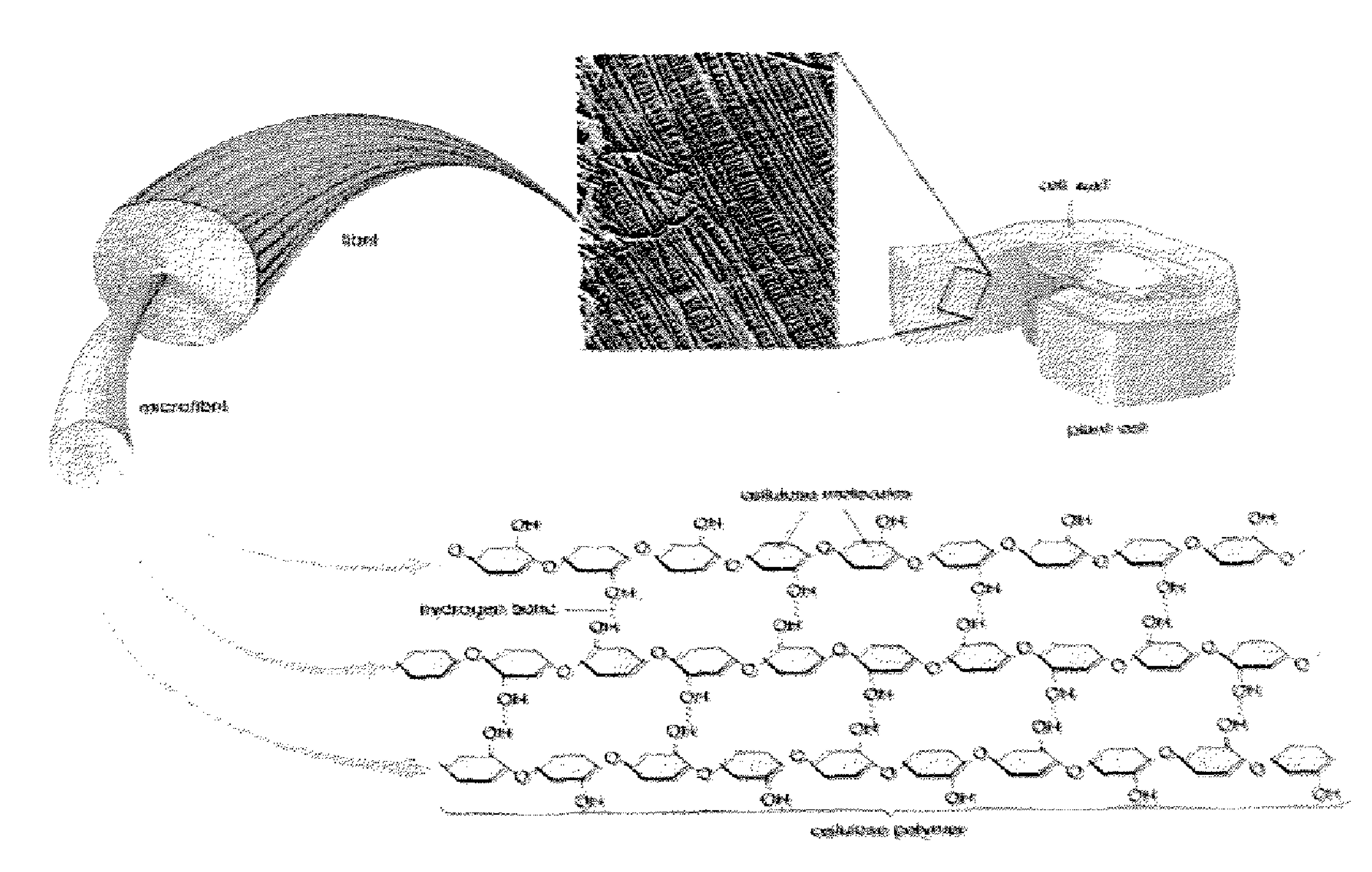
العناصر الحيوية في الطبيعة، مثل النيتروجين، والكربون، والأوكسجين، والكبريت، والفوسفور، فمثلاً هناك نيتروجين حر في الجو، تلتقطه بكتيريا معينة ومعروفة لتثبته بالتربة، وتحوله إلى أمونيا ونترات ومركبات النترات، لتستفيد منه البقوليات خاصة، فإذا ما نمت هذه النباتات، وأصبحت طعامًا للحيوانات، فإن موادها تتحول في أجسام الحيوانات إلى بروتينات، وغيرها، فإذا ماتت هذه الحيوانات، فإن الميكروبات في التربة تحلل أجسامها ، وإفرازاتها من بول وبراز إلى مركباتها وعناصرها الأساسية، ومن بينها نوع من البكتيريا وظيفته تخليص النيتروجين من مركباته الأساسية، ليصبح حرًا في الجو، كما كان في بداية الدورة، وبهذا تتم الدورة لتبدأ من جديد.

وهذا ما يحصل للعناصر الأخرى، فلكل نوع من الميكروبات دور، سواء كان بكتيريا أو فطريات أو خمائر ، كل واحد يقوم بواجبه، بأدوار تكاملية، يتدخل الواحد في الوقت المناسب، والكيفية المناسبة، ليفعل فعله بالمادة التي يقدر عليها، فيحولها إلى مخرج آخر، ليأتي دور ميكروب آخر، وهكذا حتى تكتمل الدورة، لتضمن استمرارية استعمال العناصر، واستمرارية الحياة. وأكثر المواد المتحللة - بغض النظر عن مصدرها - مواد كربوهيدراتية وبروتينية. فالسيليلوز[1] هو نوع معقد من

---

(١) جزيء السيليلوز الواحد يتكون من ٢٠٠٠-١٥٠٠٠ وحدة جلوكوز.

الكربوهيدرات، وهو أبرز مكونات النباتات الراقية، وأكثر المركبات العضوية وفرة في الطبيعة، حيث يوجد في السيقان، والأغصان والأوراق.. إلخ. ويتكون بناؤه من وحدات من الجلوكوز، مرتبطة مع بعضها لتُكوِّن سلاسل طويلة (شكل رقم: ٣).



شكل رقم (٣): سلسلة سكرية في جزيء من السيليلوز

ورغم أن النشا يتكون من الوحدات نفسها، لكنه مرتبط بطريقة مختلفة، فإن تحلل النشا أهون على الميكروبات من السيليلوز، لذلك فإن البكتيريا التي تحلل النشا مختلفة تمامًا عن تلك التي تحلل السيليلوز.

تتشارك أعداد وأنواع كثيرة من الميكروبات في تحليل

السيليلوز، ففي المناطق الرطبة، تكون الفطريات هي اللاعب الرئيس في العملية، بينما تكون البكتيريا كذلك في المناطق شبه الجافة، علمًا بأن هناك مئات الأنواع من الفطريات متخصصة بالسيليلوز، وكذلك مئات أخرى مختلفة من البكتيريا، خاصة بالسيليلوز.

هذه الميكروبات المختلفة، منها ما يعمل في الهواء الطلق، ومنها ما هو لا هوائي (يعمل بكفاية أكثر في غياب الأوكسجين). ومنها ما يعمل بنشاط أكبر في درجات حرارة عالية، وأخرى في درجات متوسطة، وأسرع ما تكون عملية التحليل للنشا والسيليلوز، عند وجودها في أوساط بيئية تتميز عن غيرها بكثرة جراثيمها، من حيث الأعداد والأنواع[1].

وتساعد الأرضةُ الميكروبات في تحليل الخشب[2]، وهي مخلوقات صغيرة تُرى بالعين المجردة، تعيش بشكل رئيس على مادة السيليلوز، الموجودة في الجذور، وسيقان الشجر. وهي مشهورة بتخريب الأثاث، وأخشاب البيوت (شكل رقم: ٤).

---

(١) مقدمة في ميكروبيولوجيا التربة، تأليف: مارتن ألكسندر، ١٩٨٢م.

(٢) منشورات وزارة الزراعة-المركز الوطني للبحوث الزراعية ونقل التكنولوجيا مديرية نقل التكنولوجيا والتدريب، ٢٠٠٣م - الأردن.



شكل رقم (٤): الأرضة داخل قطعة من الخشب.

والأرضة حساسة جدًا للضوء، لذلك تترك الطبقة الخارجية من الخشب، لتحجز عنها الضوء، وتعيش في مستعمرات يصل عدد أفرادها إلى المليون. وأعلى درجات نشاطها في الربيع، وقد عرف العلماء حوالي ٢٢٤٥ نوعًا منها، معظمها موزع في المناطق الاستوائية، لكل مستعمرة ملك وملكة، ويمكن أن يعيشا لعشرة أعوام. ويمكن للملكة أن تضع ٣٠,٠٠٠ بيضة، ويكبر حجمها إلى ٢٠ ضعف حجم العاملة. أما الأفراد والجنود، فقد زود الله كل واحد منهم بفكين ضخمين وقويين. لقضم السيليلوز، وتحويله إلى قطع صغيرة، وبعضها يستطيع نفث سم، يشل الخصم تمامًا.

الأرضة الواحدة تتعايش مع ميكروبات[1] صغيرة في بطنها (طفيليات أو فطريات). فهي تفتت السيليلوز، والميكروبات تفرز إنزيم السليوليز (Cellulase enzyme)، الذي يحول القطع إلى مكوناتها السكرية الأساسية، ثم هضمها وتحويلها إلى شكل مفيد للميكروبات والأرضة في الوقت نفسه، بحيث أن لكلٍّ دورًا يكمل الآخر.

وعندما تريد الملكة فقس بيضها، تأمر بجمع بعض المواد العضوية، وجعلها على شكل محاضن، ثم تُحلل وتُخمر هذه المواد العضوية، بواسطة الميكروبات، لرفع الحرارة إلى الحد المطلوب للفقس، فيحصل ما تريد الملكة، فسبحانك ربي ما أعظمك، وما أبدع صنعك، وما أحكم ترتيبك!

أما المواد البروتينية، خاصة تلك الموجودة في الجثث، بغض النظر عن نوعها، حيوانية كانت أم بشرية، فإنها تتحلل بفعل الميكروبات الموجودة في الجثة نفسها وعلى سطحها، فالحيوانات وخاصة المجترة منها، فيها أنواع معينة من الميكروبات، ليست موجودة في غيرها، وبأعداد كبيرة جدًا، لا تتوقف لحظة واحدة عن النمو والتكاثر، على حساب خلايا معيلها حالما يموت، وتتعاون

---

(١) مجموعة من الأبحاث المنشورة على الشبكة العالمية تحت عنوان:
.«isopora, the white ant»

معهــا الجراثيم الموجودة على الجلد، والمتوفرة بكثرة في التراب. ثم لا تلبث أن تسـاعدها مجموعات هائلة من اليرقات، التي سرعان ما تكبر، وتصبح ديدانًا أكبر.

هـذه الجيـوش الجرارة مـن الميكروبـات، التي سـخرها الله لخدمة الإنسـان، وكثير منها طـوع إرادته، أصبح بفضل ما أعطاه الله مـن علـم، يوجه الميكروبـات لخدمات جديدة[1]. فهـي تنتج له صناعيًـا بتقنيات معينة، ما يعجز الجسـم البشـري عـن صناعته، مثل اسـتعمال بكتيريـا (E. coli) لإنتاج الأنسـولين، وإنتاج المادة العلاجيـة المهمـة المسـماة إنترفـيرون، وكذلك أصبحت بواسـطة تقنيات الهندسـة الوراثية، تسـتعمل لإنتاج مواد مفيدة، كمطاعيم ضد بعض الفيروسـات، والميكروبات الممرضة.

ليس هذا فحسـب، بل أصبحت وسيلة العلماء السهلة، للقضاء علـى بقع الزيـت في المحيطـات[2]، لحمايـة المخلوقـات البحرية من خطـر التلـوث القاتـل، وهذه تتـم بعملية تسـمى المعالجـة الحيوية

---

(١) وخير مثال ما يسمى بالبطارية البكتيرية للهاتف الجوال، التي اخترعها العالمان سوديس وريك لافلي من جامعة مساتسوستس. حيث إن البكتيريا الموجودة في الرواسب الخالية من الهواء تحت الأرض في منطقة فرجينيا واسمها «رودوفيراكس فبريد وسينز» تقوم بتكسير السكر إلى ثاني أوكسيد الكربون- وشحنات كهربائية - مجلة (Nature Biotechnology) العلمية المتخصصة، أيلول عام ٢٠٠٣م.

مصيبة Exxon Valdez التي حصلت عام ١٩٨٩م في أحد شواطئ الألاسكا حيث رشت كميات كبيرة من جرثومة السيدموناس فوق بقعة الزيت، فسرعان ما آكلتها وحولتها إلى مواد غير ضارة.

(bioremedation)، وأحسـن الجراثيـم الـتي تنجز هـذه المهمة بأقـل التكاليف، وأسـرع الأوقـات، هي من عائلة السـيدوموناس (pseudomonas)، التي تستطيع أن تأكل وتتغذى على البترول، وكذلك لديها المقدرة على العيش وسـط بعض المبيدات، والمعقمات الجرثومية، وتسـتطيع أن تحول الزئبق والسـموم بالتعاون مع بعض الجراثيم الأخرى إلى مواد غير سامة، بعد أن تتغذى عليها، وتحولها إلى مركبات أخرى.

هناك آفات زراعية انتشـرت في العالم، أحدثت أضرارًا كبيرة في الزراعـة والإنتـاج، وبعد الأبحاث الطويلة لم يجد العلماء وسـيلة أفضـل من اسـتعمال الميكروبات، للقضاء على هـذه الآفات، وقد نجحت البكتيريا بحل هذه المشكلة، واستفاد المزارعون من ذلك، وأكثر جرثومة اسـتعملت لهذا الغرض، ولا تزال تسـتعمل، هي من عائلة (Bacillus).

وقد واجهت العلماء مشـكلة، تتمثـل في عدم تحلل بعض أنواع البلاستيك والبلسترين، وانتشارها على سطح الأرض الزراعية. مما كان يـؤذي الحيوانات، إذا ابتلعتها مع الأعشـاب، أو يقلل كفاءة الأرض الإنتاجيـة زراعيًا، وبعد سلسـلة طويلة مـن الأبحاث امتدت لعشـرات السـنين، توصـل العلمـاء في اليابان إلى تكثـير بكتيريا مهندسة جينيًا، قادرة على تحليل هذه المواد والتخلص منها.

أمـا دور هـذه الميكروبات في خدمة الإنسـان من خلال صناعة الحليب ومشتقاته، من ألبان وجبن، ثم المنظفات والملابس والأشربة، وصناعة المضادات الحيوية، والأسمدة، والتخلص من النفايات، فحدث عنها ولا حرج، فدورها كبير جدًا، وفائدة الإنسان من ذلك عظيمة.

وفـوق كل مـا سـبق، فإن هـذه الجراثيـم جنود مـن جنود الله العديدة، يسـلطها على من يشـاء من البشـر، لحكمة هو يعلمها، فقـد سـلط الله جرثومة الطاعون علـى بني إسـرائيل، وعلى أقوام آخرين عقوبة لهم[١]، كما سـلط غيرها من الجراثيم الأخرى، التي تسبب سلسلة الأمراض الجنسية نتيجة للزنى والشذوذ.

ومن يقرأ كتاب الدكتور زنسر[٢] «**الفئران والقمل والتاريخ**» يجد فيه عجبًا، فكثير من القادة العظام، دخلوا التاريخ من أوسـع أبوابـه، وحصلـوا على أكاليل النصر، بدعـوى أنهم ربحوا معارك عالميـة خلّـدت أسماءهم، والواقع غير ذلك، فلـم يكن الأبطال هم الذيـن حسـموا هذه المعـارك، وإنما كانت الجراثيم هي السـبب، إذ فتكـت بالطـرف الآخـر، وأوردته مـوارد الهـلاك، كجرثومة الدزنتاريـا، التي فتكت بجيش رومل في معركة العلمين. وجرثومة التيفوس، التي فتكت بجيش نابليون في بلاد الصرب.

---

(١) يقول الرسول(ﷺ): « إن هذا الوجع أو السقم (الطاعون) رجز عذبت به أمم قبلكم ثم بقي بعد بالأرض فيذهب المرة ويأتي الأخرى...» (صحيح البخاري).

(2) Rats, Lice and history (1935) by Hans Zinsser)

دابة الأرض... تأكل منسأته!!

كان لابد من الإشارة إلى هذه المقدمة، ورغم أنها من البدهيات العلمية الموثقة، والمنشورة في كتب علم الجراثيم، وخاصة ما يتعلق بجراثيم التربة والصناعة والتحليل والتخمر[1] وغيرها، التي يراها أصحاب الاختصاص رأي العين، من خلال المجاهر المتطورة، والتكنولوجيا المتقدمة، التي أدت إلى معرفة متقدمة بأنواع الميكروبات المختلفة، من بكتيريا، وفطريات، وطفيليات وغيرها، من حيث الأسماء والأدوار التي تقوم بها في الطبيعة، خاصة فيما يتعلق بتحليل الخشب، ومادته الرئيسة السيلولوز، وباقي مكونات الأغصان والأوراق والنباتات والفضلات والجثث الحيوانية المختلفة.

هذه الحقائق وغيرها، تُملي علينا إعادة قراءة آيات القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، ومن ثم الاطلاع على ما ذهب إليه أهل التفسير، الذين استفادوا مما تجمع لهم في عصرهم من معارف وعلوم، سخروها للاستدلال بها على ما ذهبوا إليه، وإعادة قراءتها لنلمح بعض المعاني الجديدة التي يمكن أن تضاف إلى ما وصفه المفسرون، مستفيدين مما فتح الله على الناس في هذا الزمن، من علوم، ومعلومات ثابتة، وإبداعات عظيمة، وتخصصات في منتهى الدقة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ

---

(١) يوجد في علم الميكروبات فروع مختلفة منها علم جراثيم التربة (soilmicrobiology) وعلم جراثيم الصناعة (industrial microbiology) وغيرها الكثير.

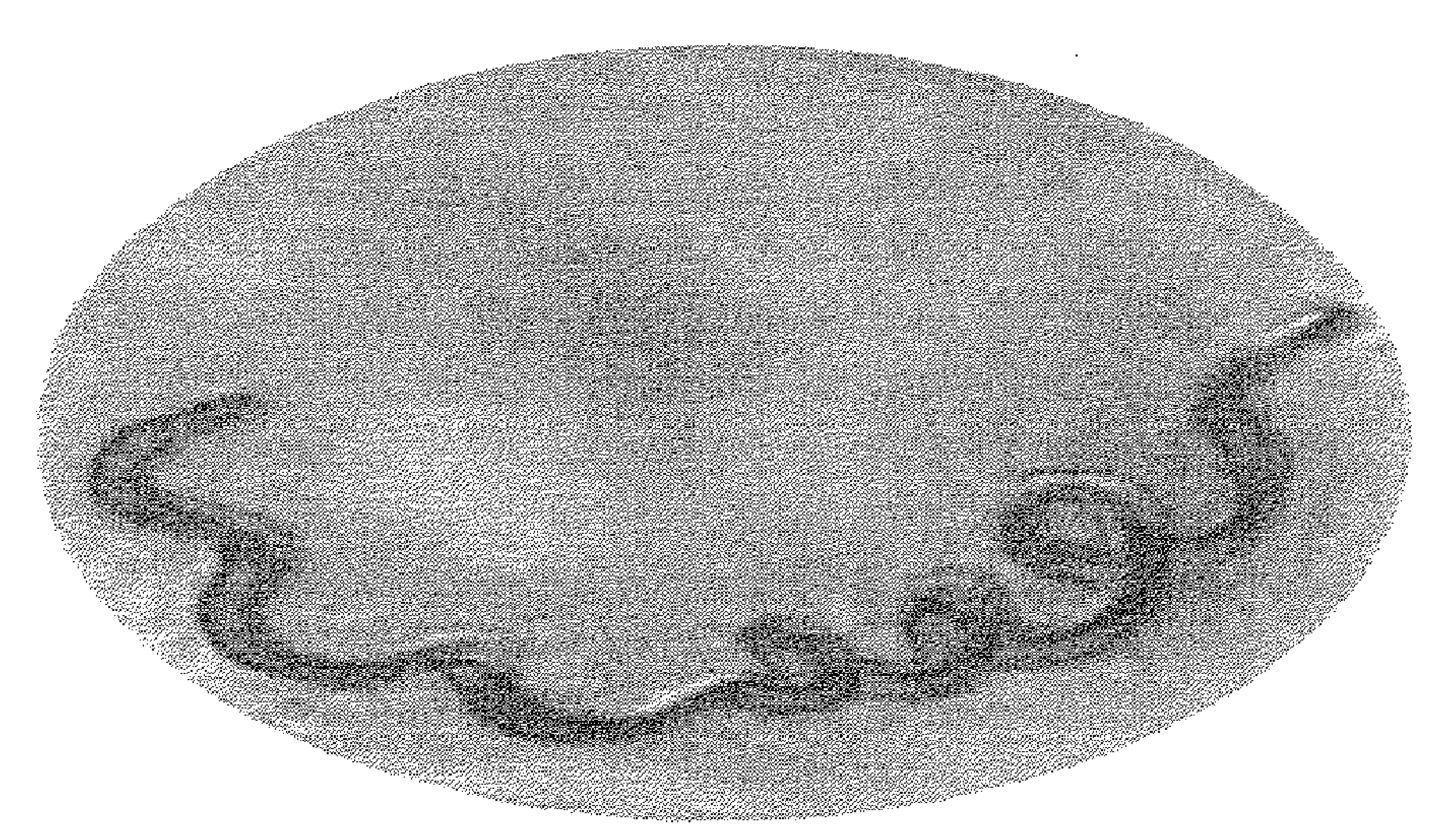
﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

من هذا المنطلق، ومن واقع الاختصاص في علم الميكروبات الطبية، كنت أتأمل مليًا الآيات القرآنية، التي وردت فيها كلمة «دابة»، التي عرفها المفسرون في زمانهم، في ضوء ما تجمع لهم من معارف، بأنها تغطي المخلوقات المرئية بالعين المجردة، من النملة الصغيرة إلى الفيل الكبير، وهذا التعريف صحيح، لكن الجديد الذي يلح عليَّ أن أكتب فيه، وأبينه للناس بحكم اختصاصي، هو ظهور أمور جديدة، جاءت ثمارًا طبيعية للتقنيات الجديدة، ومعطيات ثابتة للعلم الحديث، ومعارف أكيدة، كالجراثيم التي أصبحنا نراها، ونتعامل معها يوميًا، لتطويعها لخدمة الإنسان، أو لتجنيبه أذاها.

هذه المخلوقات المجهرية، التي عرفنا تركيبها وطبيعة حياتها، ودورها في الوجود، وانبثاثها المذهل في الأرض، وعلاقتها بالإنسان مباشرة من خلال إحداث المرض، أو تقديم الخدمة له، أو بطريقة غير مباشرة من خلال ما يقتات عليه الإنسان من نبات وحيوان. هذه المخلوقات هي من دواب الأرض، التي تشملها معاني الآيات الكثيرة، التي وردت في كتاب الله العظيم.

هذه المخلوقات المنبثة في كل مكان، لو قُدر للإنسان العادي أن يرى الواحدة منها مكبرة مليون مرة، لرآها حيةً تسعى، خاصة إذا

كانت من النوع المتحرك. إذن العلة هي في صغر حجمها، ومحدودية الإبصار عند البشر، علمًا بأن محدودية الإبصار عند البشر هي من نعم الله العظيمة التي أنعم بها على الإنسان؛ لأنه لو قدر له أن يرى ما على جلده من ميكروبات، لمات همًا وغمًا، فسبحان الذي خلق كل شي فقدره تقديرًا (شكل رقم ٥).



شكل رقم (٥): بكتيريا لولبية مكبرة خمسًا وعشرين ألف مرة.

فلو قرأنا قول الله تعالى، عن سليمان (عليه السلام): ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ﴾ (سبأ: ١٤) والمنسأة [1] هي العصا التي كان متكئًا عليها، وهي في الغالب الأعم من الخشب، ومادة الخشب الرئيسة كما هو معروف اليوم هي مادة السيليلوز.

---

(١) المنسأة: أصلها من نسأتُ الغنمَ أي زجرتها وسقتها، فسُميت العصا منسأة لأنه يزجر بها الشيء ويُساق، والمنسأة هي العصا بلغة أهل الحبشة واليمن.

وكما سبق ذكره، فإن أعدادًا كبيرة من الميكروبات، التي لا ترى بالعين المجردة هي المسؤول الأول عن تآكل السليلوز وتحليله، بالتعاون مع الأرضة.

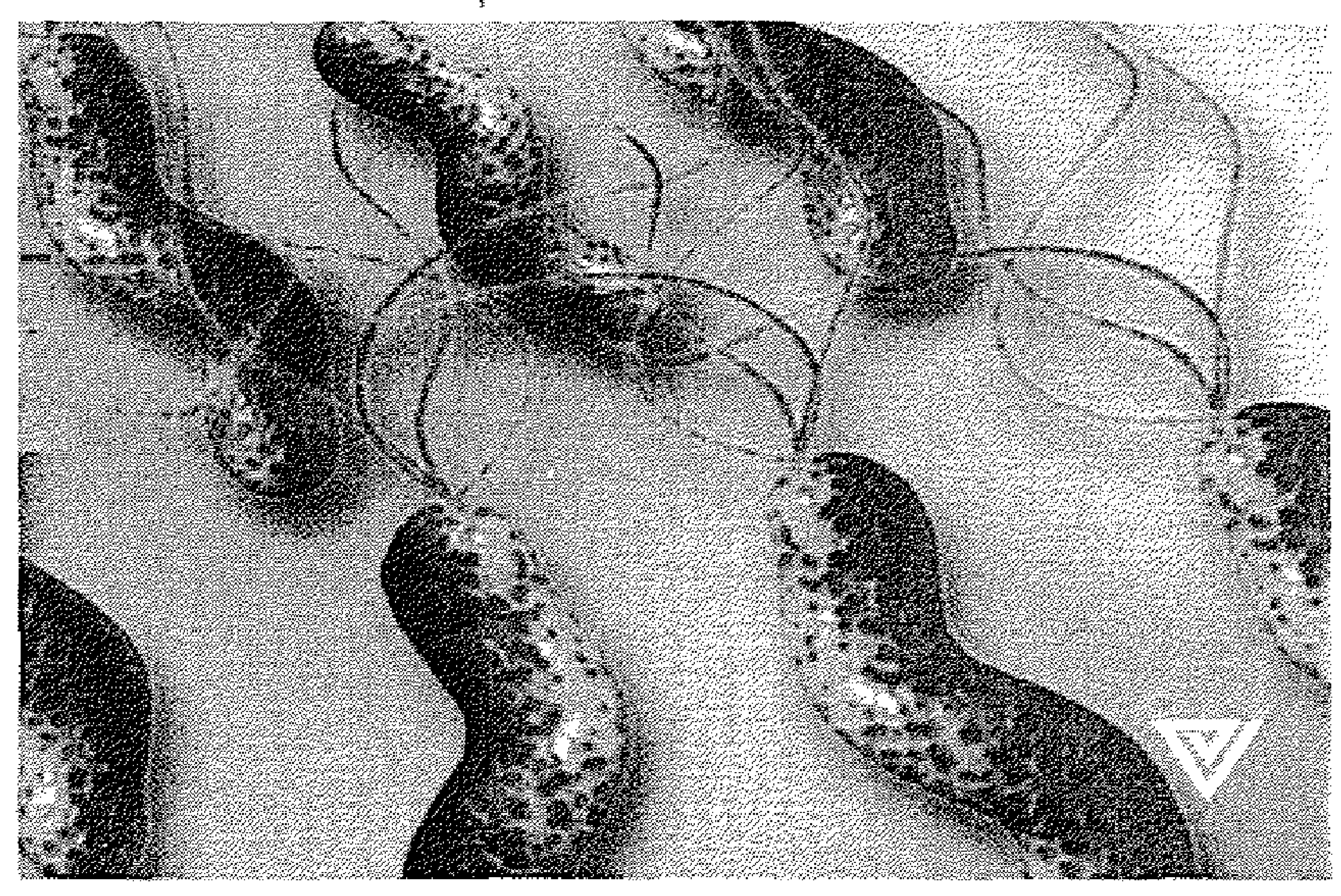
فالميكروبات بأنواعها تستطيع منفردة أو مجتمعة أن تحلل السليلوز والنشا وما شابه ذلك، إلى وحداته الأساسية، ثم تحول هذه الوحدات إلى ثاني أكسيد الكربون، وبعض المخرجات الأخرى المختلفة، حسب نوع الميكروب، وظروف التحليل، وأحيانًا تتعاون هذه الميكروبات مع الأرضة لإتمام ذلك.

لكن الحقيقة الثابتة أن بعض أنواع الأرضة لا تستطيع أن تهضم مادة الخشب كغذاء تقتات منه، مع أنها تستطيع قضمها بفكين قويين، لكن لابد من وجود ميكروبات أصغر منها هي التي تكمل المشوار، لاستخراج طاقة من الخشب لها وللأرضة، للاستمرار بالقضم وبالعمل...

وهكذا، ولأن المفسرين في السابق، لم تتيسر لهم علوم الجراثيم كما هي اليوم، فقد ذكروا ما رأوا وعلموا، وهو صحيح؛ لأن الأرضة مثل بعض النمل الصغير حجمًا، يُرى بالعين المجردة. فعلم الميكروبات الحديث، يضيف لما ذكروا، بأن ما ورد في الآية الكريمة، عن دابة الأرض يشمل غير المرئي، مثل الميكروبات التي ثبت أنها تحلل السيليلوز وهي مادة الخشب، لتتغذى عليها وتنتج منها موادَّ أخرى.

والأمر العلمي الآخر، أن مكونات خلية الميكروب، هي من مكونات الخلية الحيوانية نفسها (خلايا الدواب الكبيرة)، من حيث نسبة الماء، والعناصر الموجودة فيها، مثل الهيدروجين والأوكسجين والكربون... إلخ، وينطبق عليها ظاهر معنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النور: ٤٥).

فالميكروبات بالإضافة إلى كونها مخلوقة من ماء، وهذا معروف علميًا، فإنها تتحرك أيضًا، منها بلا أسواط حقيقية كالأميبا، ومنها ما له سوط واحد، أو أكثر، تتحرك بواسطتها، وتسبح بملكوت ربها تبحث عن رزقها، فهي تتصرف رغم أنها وحيدة الخلية، وصغيرة جدًا، تتصرف وكأنها دابة متعددة الخلايا، كالتي نراها بالعين المجردة (شكل رقم: ٦).



شكل رقم (٦): بكتيريا مكبرة حوالي عشرة آلاف مرة، وتظهر فيها الأسواط.

والأمر الأهم هو معنى دابة في اللغة، فالمنجد ولسان العرب يفيدان بأن كلمة دابة هي مؤنث دابّ، وجمعها دَوَابّ، وتقع على المذكر والمؤنث، ومصغرها دويَّبة، وهي كل ما يدب الهوينا - الحركة ببطء - على الأرض، ليشمل الصغير والكبير، المميز وغير المميز، وما يعقل وما لا يعقل. والدابّة اسم لما دب من المخلوقات مميزة وغير مميزة.

وعندما نستعرض بعض الآيات الكريمة التي تُذكر فيها كلمة دابة، نجد كلمة أخرى تكاد تكون ملازمة لها، وهي بث أو يبث؛ يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ (الشورى: ٢٩)، ويقول تبارك وتعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ (لقمان: ١٠)، وقوله: ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (الجاثية: ٤)، وكذلك قوله (ﷻ): ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٦٤)، ومعنى «بَثَّ» - لغة - كما ورد في لسان العرب: نَشَرَ وكثَّر وفَرَّق، فإذا انطبقت معاني الانبثاث

على الدواب المرئية، من جراد ونمل ونحل وبهائم، وحيوانات أخرى، وبشر، فإنها تنطبق على غير المرئية أكثر، كالميكروبات؛ لأنها أسرع تكاثرًا وانتشارًا، فهي تتكاثر بسرعة عجيبة بالقياس إلى المخلوقات الأخرى. وهي محمولة على الإنسان والحيوانات والنباتات، ومبثوثة في الهواء والماء، وهي منبثة في التربة بأعداد هائلة، لذلك هي أكثر عددًا وتفرقًا وانتشارًا في الكون من غيرها.

كل ما سبق من معانٍ علمية ولغوية، يفيد بأن الميكروبات على اختلاف أنواعها وأشكالها، ورغم أنها تتحرك، وتعمل بالخفاء، دون أن يبصرها البشر، فإنها من دواب الأرض. وكلمة دابة كغيرها مرنة، تتسع لكل جديد، شريطة أن يرقى إلى درجة الحقيقة.

وبناءً على ما سبق، نستطيع أن نؤكد أن الذي أكل منسأة سيدنا سليمان هي الميكروبات بالتعاون مع الأرضة؛ لأنهما يعيشان عيشة تعاونية، فيها منفعة متبادلة، من حيث إن بعض الميكروبات يعيش في بطن الأرضة، يساعدها في هضم المادة الخشبية، وتحويلها إلى طاقة غذائية لهما.

وهذا ينطبق أيضًا على صحيفة المقاطعة، التي أكلتها دابة الأرض، ومادة هذه الصحيفة التي علقت في الكعبة إما أن تكون ورقًا، والورق يصنع من الخشب، ومادته السليلوز، وهي مادة منسأة سليمان (عليه السلام) نفسها، أو جلدًا، والجلد معروف أنه يتكون من خلايا قرنية، مملوءة بمادة بروتينية، اسمها «كيراتين»، وهي غذاء

جيد للجراثيم، بل بعض الفطريات لا يعيش إلا عليها!

وقصة الصحيفة الظالمة[١] أن قريشًا لما تكاتبت على بني هاشم - حين أبوا أن يدفعوا إليهم رسول الله (ﷺ) - أن لا يُناكحوهم ولا يُبايعوهم ولا يُخالطوهم في شيء، ولا يكلموهم، فمكثوا ثلاث سنين في شعبهم محصورين، ثم اتفق نفرٌ من أهل المروءة، أن ينقضوا هذه الصحيفة لظلمها. وكان أول الفاعلين زهير بن أبي أمية، حيث أقبل على الناس عند البيت، وقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى؟! لا يُباع لهم، ولا يُبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. قال أبو جهل - وكان في ناحية من المسجد -: كذبت، والله لا تُشق!

---

(١) هكذا وردت في تهذيب سيرة ابن هشام - عبد السلام هارون - مؤسسة الرسالة دار البحوث العلمية - الكويت.
علمًا بأنها وردت في «صفة الصفوة»، للإمام ابن الجوزي على نحو إعجازي آخر يتمثل بأن الله - تبارك وتعالى - أطلع نبيه على أمر صحيفتهم، بأن الأرضة قد أكلت ما كان فيها من جور أو ظلم، وبقي فيها ما كان من ذكر الله، فذكر ذلك رسول الله (ﷺ) لأبي طالب. فقال أبو طالب: أحق ما تخبرني به يا ابن أخي؟ قال: نعم والله. فذكر أبو طالب ذلك لإخوته، وقال: «والله ما كذبتني قط»، فخرجوا حتى دخلوا المسجد. فقال أبو طالب: إننا قد جئنا لأمر فأجيبوا فيه، قالوا: مرحبًا بكم وأهلاً. قال: إن ابن أخي قد أخبرني أن الله قد سلط على صحيفتكم التي كتبتم الأرضة، فلحست ما كان فيها من جور أو ظلم وقطيعة رحم، وبقي فيها كل ما كان من ذكر الله. فإن كان ابن أخي صادقا نزعتم سوء رأيكم، وإن كان كاذبًا دفعته إليكم فقتلتموه أو استحييتموه إن شئتم. قالوا: أنصفتنا، فأرسلوا إلى الصحيفة، فلما فتحوها إذا هي كما قال رسول الله (ﷺ) فَسُقِطَ في أيدي القوم، ثم نُكسوا على رءوسهم. فقال أبو طالب: هل تَبَيَّنَ لكم من أَوْلَى بالظلم والقطيعة؟ فلم يراجعه أحد منهم، ثم انصرفوا.
(صفة الصفوة للإمام أبي فرج بن الجوزي، تحقيق: الشحات، المجلد الأول، دار المنار).

فقام زمعة بن الأسود، وأبو البختري، والمطعم بن عدي، وهشام بن عمرو، وقالوا كلامًا يوافق ما قاله زهير بن أبي أمية، وينكرون على أبي جهل ما قال، فقال أبو جهل: «هذا أمر دُبِّرَ بليلٍ، تُشوور فيه بغير هذا المكان». فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا «باسمك اللهم»...!!

وبناءً على ما سبق، فإن الميكروبات تقوم منذ بداية الخليقة، وإلى يومنا هذا بعملٍ عظيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون؛ لأنها مخلوقاتٌ غير مرئية، رغم انتشارها المذهل تقوم بهذا العمل بهدوءٍ وصمتٍ ليلَ نهار، طاعةً لخالقها، وخدمة للإنسان الذي كرمه ربه، دون سائر خلقه، بأن سخر له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما، وما عليهما، فتحلل المواد والأجسام، وتزيل السموم، وتصنع للإنسان طعامًا وعلاجًا وشرابًا، وتدير عجلة دورات العناصر الحيوية في الكون، لمصلحة الإنسان والحيوان والنبات، فهي نعمة من نعم الله، التي لا يدرك أهميتها إلا العارفون والعالمون.

فإذا علمنا أن مجموع مخلفات البيوت والمتاجر والمصانع اليومية وفضلاتها في نيويورك وحدها يساوي أحد عشر ألف طن، وأن الولايات المتحدة الأمريكية تجمع سنويًا ما يساوي عشرة مليارات طن، فهذا يعني أن مئات المليارات من الأطنان تجمع سنويًا في العالم، ولكنها سرعان ما تختفي

فـلا تتراكـم؛ بفضـل الـذي أوجـد لنـا هـذه المخلوقـات العظيمة ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (الجاثية: ٤).

فلنـا أن نتصـور لو أن هذه المليارات مـن الأطنان تراكمت على مـدى قرن مـن الزمان! فما الذي سيحدث في الأرض يا ترى؟! وهل سيبقى وجه البسيطة صالحًا للعيش؟! لا أظن ذلك.

والله - تبارك وتعالى - قد منَّ علينا، أن خلق هذه الميكروبات؛ لتنظيف الأرض أولاً بـأول، دون أن تزاحـم البشـر علـى مكان أو طعام، تقوم بعمل عظيم بلا تكاليف، ولنا أن نتصور لو أن الله قد خلـق هذه المليارات من الميكروبات بحجم كبير، لسـدت الطرق، وامتلأت الأرض بالجراثيم، وفسـدت الحياة، ولكنه قد خلق كل شـيء بقدر، ولكن أكثر النـاس لا يعلمون! وهـذا يتفق تمامًا مع سنة الله في توازن الخلق كله، فضعف الميكروبات الشديد يعوض بكثرتها الهائلة.

ضعاف الطير أكثرها فراخًا أمُّ الصـقر مقـلاةٌ نزورُ

ولو أراد الله أن يُعذب الإنسـان فلديه من الوسائل ما لا يحصى، ولكنـه يُمهـل ولا يُهمل، ولـو رفع عنا هذه الخدمـة العظيمة فقط، وأوقف عمل هذا الجندي المجهول... لكان نوعًا من العذاب لا نألفه، وشـديدًا لا نطيقـه، والله تبـارك وتعـالى يقول في محكـم كتابه: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾(النحل: ٦١).

المعاهدة الصامتة

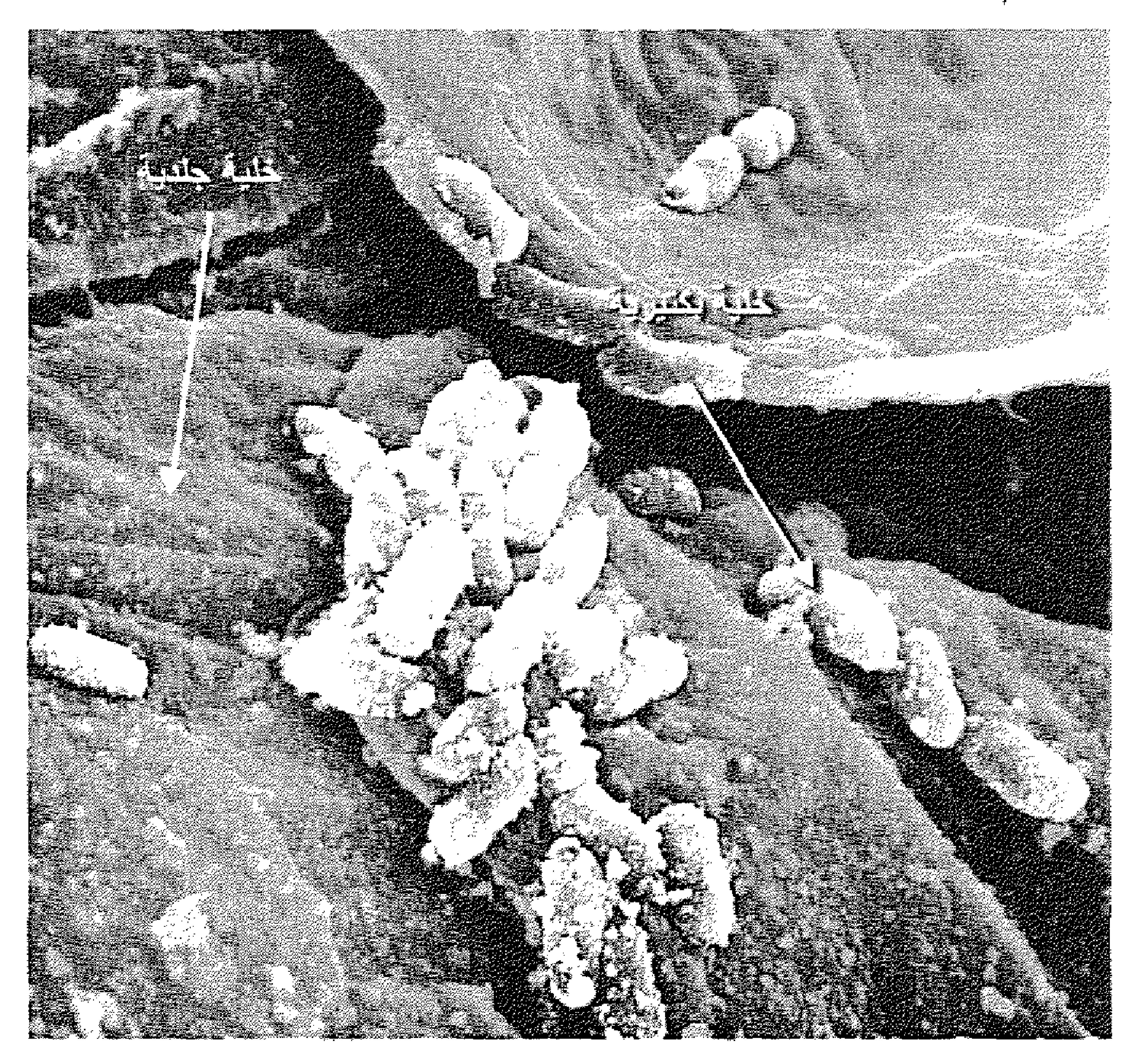
لقد حفظ الله الجنين في قرار مكين، في رحم أمه، بعيدًا عن الجراثيم، وأحاطه بما يحميه بإذن الله من السوء [١]. عندما يولد يكون معقمًا من الناحية الجرثومية، ولا يلبث كذلك إلا ساعات تتراوح بين (٤-١٢) ساعة، حيث تدخل الجراثيم زوره وحلقه مع الهواء، أثناء التنفس، وتحط على جلده مع ذرات الهباء المتطايرة في الجو، وتدخل إلى أمعائه، مع حليب أمه أثناء الرضاعة والتَّماسِّ مع جلدها [٢].

هذه الجراثيم - على اختلاف أنواعها - لا تبقى ساكنة، بل تنمو وتتكاثر، وتزداد عددًا وتنوعًا، حتى تصل إلى أرقام مخيفة، فمثلاً على الجلد يتراوح عددها ما بين (٢٠-١٠٠) مليار جرثومة، أما في الأمعاء فالعدد أكثر بكثير، ولا يعرفه حقيقة إلا الذي خلقها، وقد قرر العلماء أن الجرام الواحد من براز الإنسان يحوي أكثر من مئة مليار جرثومة، وتتضاعف باستمرار، وغالبيتها العظمى (٩٦-

(١) رحم الأم معقم جرثوميًا، فلا تصل إليه الميكروبات بإذن الله، لينمو الجنين بعيدا عما يؤذيه. والله تعالى يقول: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾(المؤمنون: ١٢-١٤)

(2) Medical Microbiology by Jawetz, Melnik and Adelberg, 20th edition1995.

٩٩٪) مـن النـوع اللاهوائـي[١] ، الـذي ينشـط بغياب الأوكسـجين (شـكل رقم: ٧).



شـكل رقم (٧): قطعة من الجلد (اللون الأحمر) مكبرة حوالي خمسة الاف مرة، وتظهر عليها بعض الميكروبات (اللون الأخضر).

فمـا الذي يمنع هذه الجراثيم من أن تأكل جسـد صاحبها؟ ما دامـت تنمو وتتكاثـر وهي داخله؟ وعلى مـاذا تتغذى هذه الجيوش الجـرارة إذن؟ بل ما مبرر وجودها بهذه الأعـداد الهائلة في الأمعاء؟! خاصـة إذا علمنا أنهـا تحاول بكل ما تسـتطيع أن تصل إلى الدم،

---

(١) من نوع Bacteriodes.

حيث الغذاء المفضل لديها؟ ومن خلاله إلى جميع أجزاء الجسم!!
ولكنها لا تستطيع، فلماذا؟ ومن الذي يمنعها؟

الله - تبارك وتعالى - الذي خلق هذه الميكروبات وبثها قد خلق في جسم الإنسان جهازًا خاصًا، للدفاع عنه، وحمايته من الجراثيم وغيرها. وبث قواته في كل جزء من جسمه!

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ... ﴾ (الرعد: ١١). هذا الجهاز ينتظم في سلكه مليارات الأفراد من القوات، ولديه وسائل اتصال سلكية ولا سلكية، ويعمل ليل نهار، بطرق تكنولوجية دقيقة، تعجز عنها أعظم الجيوش البشرية.

ولولا فضل الله، ثم وجود القوى المناعية هذه على اختلاف أنواعها، لَمَا صمد جسم الإنسان أمام هذا الكم الهائل والأعداد الغفيرة من الجراثيم التي تعيش في أمعائه، وعلى جلده، ومجرى التنفس عنده، وتحيط به من كل جانب.

وقد خلق الله للإنسان في هذا الجهاز خطوطًا دفاعية، تعمل بنظام تكاملي، وبدقة متناهية، لا تتوقف ليلاً ولا نهارًا، فهي دائمًا متيقظة، تعمل دون كلل أو ملل، لا تعرف إلا الإخلاص، والإتقان،

والتفاني في خدمة صاحبها [١].

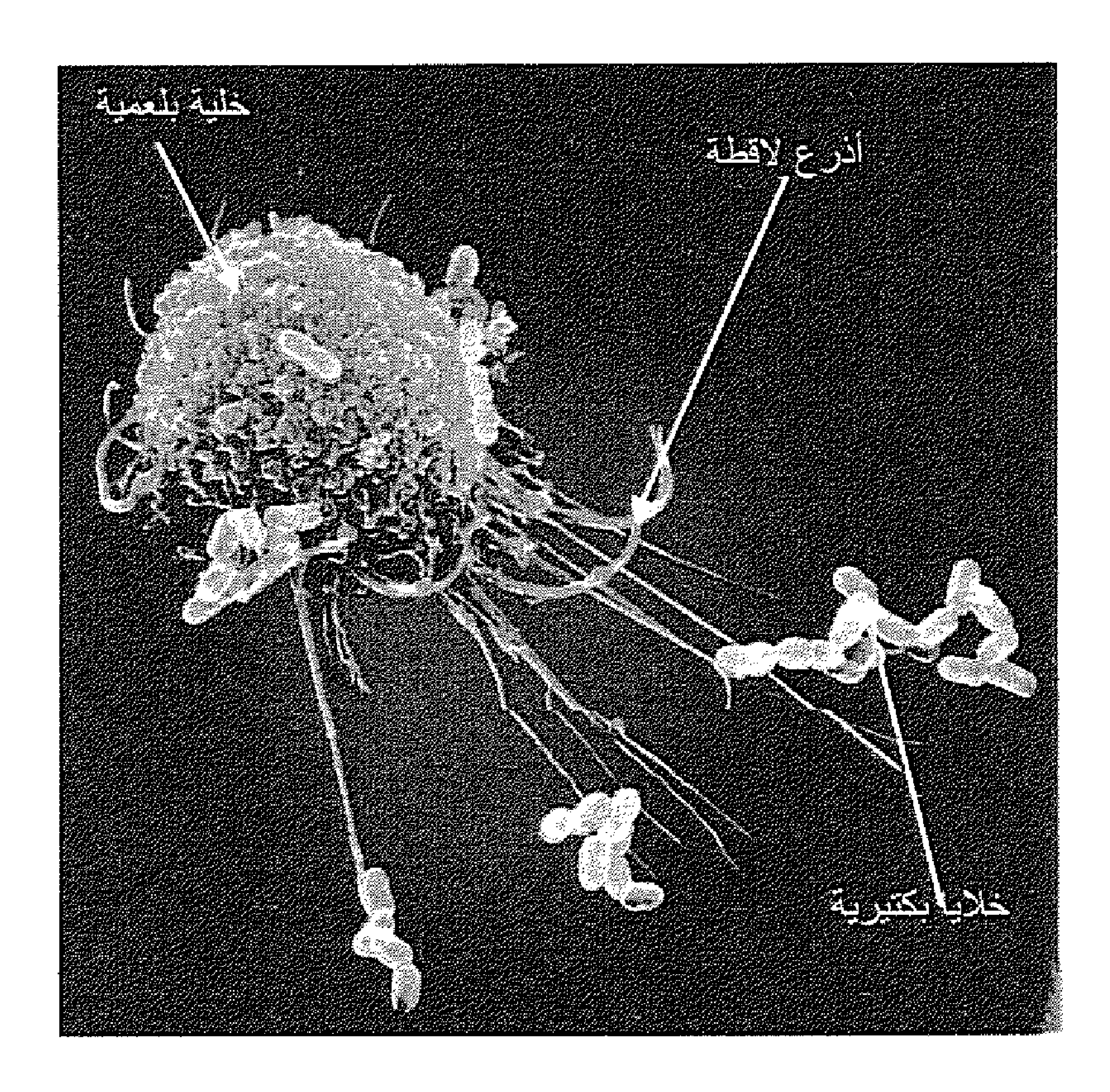
فالخط الدفاعي الأول، يتمثل بشكل رئيس، في الجلد والأغشية المخاطية، وبعض المواد الكيماوية الموجودة على الجلد، والدمع، والمواد المخاطية، والشعيرات الطاردة، فإذا استطاعت بعض الجراثيم التسلل إلى الداخل، فإن جيشًا من جنود خط الدفاع الثاني وخلاياه لها بالمرصاد. هذه الخلايا تصنع في نخاع العظم، وترسل إلى مراكز التدريب والإنضاج والتخصص، ثم ترسل إلى مواقع العمل في الجلد أو الأمعاء أو الرئتين.. وكل نوع له قدرات ومهارات، اكتسبها للقبض على الجراثيم المتسللة، وبلعها وقتلها، واستدعاء قوات إضافية عند الحاجة!! (شكل رقم: ٨).

هذه الخلايا في الخط الثاني منتشرة في كل مكان من جسم الإنسان، فكل (ملم٣) من دم الإنسان فيه حوالي عشرة آلاف خلية. وكل خلية عبارة عن جندي مسلح جاهز للعمل. وهذا الرقم يمكن أن يصبح عشرين ضعفًا خلال ساعة واحدة، إذا ما داهمت الجراثيم الغازية الجسم، واستباحت حرمته، فتدوي صفارات الإنذار في الحال، ويحصل النفير العام، في كل أنحاء الجسم [٢].

---

(١) إلا إذا وقع في الحرام (الزنى والشذوذ والمخدرات) عندها يتخلى عن صاحبه فلا يحميه وربما يصاب بالإيدز أو الأمراض الجنسية الأخرى.

(٢) وصدق رسول الله (ﷺ)، حيث يقول: «مثل المؤمنين في تَوادّهم وتراحُمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» (متفق عليه).



الشكل رقم (٨): خلية بلعمية تلتقط خلايا بكتيرية وتبتلعها

وأما الخط الثالث فهو أكثر دقة وتعقيدًا، ويعمل في الوقت المناسب، بطريقة بديعة منسقة ودقيقة. وهو عبارة عن خلايا لمفية تسمى الخلايا البائية، وتصل إلى مئة مليون نوع، كل نوع قادر على إطلاق قذائف متخصصة ضد الجراثيم الغازية. وتستطيع الخلية الواحدة أن تُطلق آلاف القذائف في الثانية، وهكذا تطلق الخلايا الليمفاوية مليارات المليارات من القذائف في الدم، تسمى الأجسام المضادة، تتولى مطاردة الميكروبات الغازية والقضاء عليها.

هذه الخطوط الدفاعية الثلاثة بما يساندها من وسائل كيماوية، واتصالات لا سلكية، تتعاون بطريقة تكاملية مذهلة،

فكثـرة أفرادها لا يعرقل عملها، بل يزيدها قوة ومنعة، ولديها من وسائل الاتصال الحديثة، والتنسيق العجيب، ومن القدرة على معرفة العدو مـن الصديق، إلى الحد الذي ما زال يحير الأطباء: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (النمل: ٨٨).

هـذه الجيوش الجرارة مـن قوات جهاز المناعـة، التي تعمل ليل نهـار، لتحمي أجسـامنا، يقابلها جيوش موازية مـن الميكروبات، التي تنتهز أي فرصة، يضعف بها جهاز المناعة، أو يغفل عن صاحبه، فتهجـم عليـه، وتؤذيه ولو قليـلاً، ثم لا تلبث أن تندحـر أمام قوات جهاز المناعة المختلفة التي يتمتع بها الجسم.

وهـكذا تسـتمر المناوشـات الخفيفـة والمتقطعـة، ولكن دون أصـوات، وبصمت رهيـب بين كر وفر، ليلاً ونهـارًا دون أن تحس بذلك، رغم حصوله مئات المرات في جسـمك يوميًا. ودون أن تحسـم المعركـة من طرف ما، أو ينقض طرف منها على الآخر في معركة فاصلـة فلا يحدث هذا، ما دام الإنسـان حيًـا، وفي وضعه الطبيعي من الصحة.

فالأمر أشبه ما يكون بمعاهدة صامتة، غير مكتوبة، تحترمها كل الأطراف، فلا جهاز المناعة يقضي على عدوه بالضربة القاضية، ولا تهجـم الجراثيم الغازية دفعة واحدة، لتقتل جهاز المناعة، ما دام الإنسان حيًا... ولكن الأمر يتغير كليًا عندما يموت الإنسان.

فما الذي يحصل للإنسان عند الموت؟ وما الذي يتغير؟

كان قبل لحظة يتحرك ويتكلم، فأصبح جثة هامدة لا حراك فيها.. كان يأكل ويشرب، بل يلعب ويبتسم، فأصبح جسدًا هامدًا كقطعة خشب..! يا إلهي، ما الذي حصل؟ لماذا فقد جسمه في طرفة عين حتى أصبح هكذا؟! سبحان من قهر عباده بالموت!! وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (العنكبوت: ٥٧).

تناديه..!! تحاول إيقاظه بشتى الوسائل فلا مجيب! لا فائدة.. لقد مات... مات... ماذا يعني ذلك...؟ خرجت روحه! وما الروح؟ لم نغادره لحظة، لم نر شيئًا يخرج...!!

نحن في عصر العلم، الذي قرَّب البعيد، وجعل العالم قرية صغيرة، واختصر الزمان، وجعل ما على سطح الأرض، وكثيرًا من الكواكب أمام ناظريك، في لمح البصر، حيثما كنت، رغم هذا كله، ورغم تكرار حادثة الموت، ملايين - بل مليارات - المرات، إلا أن الإنسان سيبقى حائرًا أمام معجزة الروح..

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٨٥) هذه المعجزة التي ليست في مجال مدارك الإنسان، ولن تكون يومًا بحدود إمكاناته البشرية، مهما أوتي من علم ومعرفة وتكنولوجيا، وهكذا يتجلى العجز

البشـري الدائـم، خاصـة عندما تقـرأ قول الله - تبـارك وتعالى -:
﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (الواقعـة: ٨٣-٨٧).
فمـا إن تخرج الروح من الجسـد، حتى تهجـم عليه جيوش هائلة من الميكروبات[1]، التي كانت تعيش قبل ذلك في فمه، وأنفه، ومعدته وأمعائـه، وعلى جلده، وبعد أيام تطـول أو تقصر، يدب فيه التعفن والتحلـل، فيتحول إلى هيكل عظمي، ثم يؤول هذا إلى زوال. ولولا هـذه العمليـة الديناميكية لتحولت الأرض عبر السـنين إلى كومة من الجثث الحيوانية والبشـرية والنفايات والمخلفات، ولكن شـيئًا مـن ذلـك لم ولن يحدث أبدًا. إذ قضت سـنة الله في هذا الكون أن يعـود كل شـيء إلى أصوله.. غـازات.. عناصر.. تـراب، فكما بدأ الإنسان يعود، تبعًا للحقيقة الخالدة التي قررها الله - تبارك وتعالى - في قرآنـه الكريم، من فوق سـبع سمـاوات، بقولـه: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا

---

(١) اعتقـد الفراعنـة بعودة الروح عند البعث إلى جسـدها، لذلك عمدوا إلى تحنيط جثـث الموتى، ليحموها مـن التحلل. فكان أول عمل يقومون به هو إزالة الأعضاء الداخليـة لحماية الجثة مـن التحلل، (أي إزالة المعدة والأمعـاء رغم عدم معرفتهم بالجراثيم آنذاك) ثم معالجة الجثة بالأملاح والأصماغ وزيت الأرز والعسـل والقار؛ لحمايـة الجثة من الجراثيم...» ذكر ذلك الباحثان زينارد، والدكتور سـتيفن في جامعة بريستول في مجلة scientific nature العلمية عام ٢٠٠٣م.

عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٤)، وكما ذكر في محكم كتابه: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (طه:٥٥).

تُرى ما الذي حدث بعد خروج الروح من الجسد..؟ ببساطة شديدة لقد تهدمت بالموت خطوط الدفاع الحية، التي تقف مع الجسم في حياته ضد غزو الميكروبات؛ إذ لولا هذه الخطوط العظيمة لفتكت به الجراثيم من قبل، ولما قامت له قائمة. فهذه الخطوط الدفاعية هي الحَفَظَةُ والحرس المتيقظ، يحميه من بلاء حقيقي يتربص به في كل آنٍ وحين. ولكن بالموت ينهدم طرف كامل من أطراف المعاهدة، فلا يبقى ما يقف أمام الطرف الثاني، فينطلق ويفتك بالجسم ويعيث فيه فسادًا، ولهذا عرَّف العلماء الموت بأنه التوقف الكامل لعمل جهاز المناعة وقواته[1].

---

(1) life death and the immune system, scientific American a special issue

القبر ... هل هو بيت الدود؟

ما إن تغادر الروحُ الجسدَ، حتى تتهدم كل وسائل الدفاع، التابعة لجهاز المناعة فيه، فتهب الميكروبات بجميع أنواعها، وأشكالها، وبغض النظر عن مكان وجودها في الجسم لتلتهمه، فهي مفطورة على التكاثر اللانهائي، ما دام هناك طعام متوافر، وظروف مناسبة.

فما الذي خرج من الجسد فسبب موته...؟! لا نعرف منه إلا الاسم... الروح..!! نعم الروح..!! فهي ليست شيئًا ماديًا يُرى أو يُقاس، وباختصار فهي ليست في مدار مدارك الإنسان واستيعابه مهما أوتي من قوة ومعرفة وتكنولوجيا[1].

---

(١) قال رسول الله (ﷺ): «... إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلائِكَةٌ مِنْ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الشَّمْسُ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ (عليه السلام) حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللهِ وَرِضْوَانٍ، قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ. قَالَ: فَيَصْعَدُونَ بِهَا ... ... وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنْ السَّمَاءِ مَلائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمْ الْمُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنْ اللهِ وَغَضَبٍ. قَالَ: فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنْ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا ...» (رواه الإمام أحمد)

وأما كيف خرجت الروح من كل جزئية من أجزاء جسم الإنسان..! من مليارات الخلايا المختلفة - هذه الخلايا المتحركة أو الثابتة في جسم الإنسان - فلا أحد يعرف، ومن يتصور مليارات الخلايا التابعة لجهاز المناعة، المتجولة في الشبكة اللمفاوية والأنسجة والدم، ثم مليارات الكرات الدموية، التي تجري دونما توقف في الشرايين والأوردة، مُشَكِّلةً أكبَر ازدحام مروري، يمكن أن يخطر ببال الإنسان، ولكن دونما حوادث؛ يزداد حيرة وانبهارًا !! وذهولاً !!

من يتصور ذلك ويعرفه جيدًا يعجب أشد العجب من هذا التوقف بشكل كامل عن الحركة، وكأنها سمعت إيعازًا يأمرها بالتوقف الفوري، فاستجابت لأمر ربها، وكأنها خلية واحدة.

وفي الطرف الآخر مليارات الجراثيم المتربصة، وخاصة في الأمعاء «بذرة فناء صاحبها»[1]، فمن الذي أعلمها بخروج الروح من الجسد..؟ رغم أنها لا ترى ولا تسمع ولا تدرك. وليس لديها أجهزة اتصال كما لدى البشر؟!! ثم كيف أحست بانهيار جيش المناعة الجرار بعد خروج الروح؛ لتنقلب فورًا من صديق إلى آكل للجسم بنهم منقطع النظير؟!

هل لديها من الاستشعارات الذاتية المتطورة أكثر من الإنسان حتى تدرك خروج الروح قبله؟ لا أظن ذلك، ولكنها وظيفة بأمر

(١) كان الفراعنة عند التحنيط يُزيلون الأمعاء من الجثة المراد تحنيطها، ويدهنون الجلد بمواد قاتلة للجراثيم.

إلهي، ناطها الله بالميكروبات، تنفذها بالوقت المناسب، مصداقًا لقوله(ﷻ): ﴿... ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طه: ٥٠)، فهو الذي هداها، وأشعرها بخروج الروح بكيفية لا نعلمها، لتنفذ واجبها، طاعةً لخالقها، وقيامًا بواجبها.

وقد استطاع الطب الشرعي معرفة خطوات تحلل الجثث في القبور، منذ خروج الروح من الجسد، وحتى يتحول إلى غازات وسوائل وأملاح، ﴿... ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾ (الأعراف: ٢٩)، ويتعاون في ذلك الجراثيم - خاصة اللاهوائية - الموجودة في أمعاء الإنسان، والإنزيمات التي تتحرر من الخلايا بعد الوفاة، واليرقات الدودية، التي تتكاثر بشكل سريع، وتلتهم خلايا الجثة...!!

ورحم الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز حين قال: «لو رأيتني بعد ثلاث في قبري»[1]، وكأنه يصف ما يحصل للجثة في القبر في الأيام الأولى للدفن من تغيرٍ وتبدلٍ وتآكلٍ وهجوم للديدان !!

والدم هو أول الأنسجة تأثرًا، حيث تتحل الكريات الحمراء، ويخرج منها الهيموجلوبين، فيُلوِّن جدران الأوعية الدموية، وينفذ

(١) يقول محمد بن كعب القرضي: دخلت على عمر بن عبد العزيز لما استخلف، وقد نحل جسمه وتغير لونه، وكان عهدي به بالمدينة أميرًا علينا، حسن الجسم، ممتلئ البضعة، فجعلت أنظر إليه نظرًا لا أكاد أصرفه عنه، فقال: يا ابن كعب ما لك تنظر إليَّ نظرًا ما كنت تنظره إليَّ من قبل؟ فقلت: لعجبي. قال: ومماذا عجبك؟ قلت: لما نحل جسمك وتغير لونك، فقال: كيف لو رأيتني بعد ثلاثٍ في قبري، حين تقع عيناي على وجنتَي، ويسيل منخري وفمي دودًا وصديدًا، لكنت أشد نكرة منك اليوم..!!

من خلالها، ليُلَوِّن الأنسجة حول الأوعية، باللون الأحمر، وأحيانًا ونتيجة لتفاعلات أخرى، يظهر اللون البني، أو الأخضر القاتم[1].

وأول العلامات التي تظهر نتيجة التعفن، عبارة عن بقع خضراء داكنة، تحت السرة، أو مقابل الأعور (الزائدة الدودية). ثم تكبر وتتسع حتى تعم جدار البطن كله. وفي الوقت نفسه تظهر خطوط بنية متفرعة كالشجرة، تحت الجلد، في الصدر والبطن والظهر، ومنتفخة نتيجة تراكم غازات التحلل داخلها، مثل سلفيد الهيدروجين (H_2S)، والميثان، وثاني أكسيد الكربون(CO_2)، والأمونيا (NH_3) (شكل رقم: ٩).



شكل رقم (٩): جثة في بداية مراحل التحلل.

وفي الأحوال العادية تتكون هذه الغازات في نهاية الأسبوع الأول

(١) كتاب الطب الشرعي منشورات جامعة دمشق- الدكتور زياد درويش، ١٩٩٦م.

مـن الوفاة، مؤديـة إلى توتر وانتفـاخ في الوجه، وكيـس الصفن، وجـدار البطن. وقد يؤدي ذلـك إلى إخراج محتويات المعدة من الفم، أو محتويات المستقيم من الشرج، أو إخراج جنين من رحم أمه.

كما يؤدي تراكم الغازات، إلى جحوظ العينين، وبروز اللسان بين الأسنان، وخروج زبد رغوي مدمى من الأنف والفم خلال الأسبوع الثانـي من الوفاة، وتتكون نفطات غازية تحت الجلد، سـرعان ما تنفجر، وتخرج الغازات منها، وتنبعث من الجثة رائحة كريهة نتنة. وتنفصل بشرة الجلد، فتصبح الجثة مشوهة جدًا يصعب تمييزها.

يبدأ التحليل أولاً في الأمعاء، حيث مئات المليارات من الجراثيم الجاهزة للانقضاض والتكاثر والانتشار في الجثة، ثم المعدة والمخ، ثـم يليهـا الكبد والطحـال، حيث يتكـون فيها فقاعـات غازية، وتصبح كالكيس المملتئ بالسـائل الأخضـر القاتم المنتن، وتحت ضغط الغاز المتزايد، سـرعان ما ينفجـر الكيس، فيصبح الصدر والبطن وقد امتلأ بالسـائل نفسه، وهذا عبارة عن بحر متلاطم من الجراثيم اللاهوائية، التي وجدت مكانها وزمانها وأحسـن غذائها. فتتكاثر وتتكاثر منتجة المزيد من الغاز ذي الرائحة المنتنة.

يتبع ذلك تفسـخ وتحلل في القلب والرئتين ثم الكليتين والمثانة، أمـا الرحـم[1] فيكون آخرهـا تحلـلاً؛ لأن الله (ﷻ) جعله في وضع معين، بعيدًا عن الجراثيم، لذلك يتأخر وصولها إليه، فيتأخر تحلله.

(١) ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ (المرسلات:٢١)

وبعدها ينفجر جدار الصدر والبطن خلال الأسبوع الثالث، فتخرج السوائل والروائح المنتنة أكثر فأكثر.

وهذا يختلف من حيث زمن الظهور، من جثة إلى أخرى، تبعًا لدرجة الحرارة، والرطوبة، والتيارات الهوائية، والعمر، وسبب الوفاة.

وقد وضع الدكتور محمد أحمد سليمان في كتابه «أصول الطب الشرعي» بيانًا تقريبيًا عن درجة التحلل في الجثث المدفونة في أكفان من القماش، تحت الأرض، في قبور مليئة بالهواء (طريقة الدفن المعتادة عند المسلمين) على النحو الآتي:

١- بعد مضي ٢٤-٣٦ ساعة على الوفاة تظهر بقع خضراء، في جدار البطن، مقابل الأعور، أو حول السرة. كما يظهر كثير من الأوعية الدموية المتشعبة في جلد البطن والصدر، وتسيل مقلة العين، وتتعتم القرنية.

٢- بعد يومين إلى خمسة أيام يظهر الزبد المدمى من الفم والأنف، وينتفخ البطن والصفن، وينتشر اللون الأخضر في كل جلد البطن والصدر. وتظهر النفطات الغازية تحت الجلد. وينتفخ الوجه والجسم كله بالغازات المتجمعة تحت الجلد، وتبرز العينان، واللسان، وتختفي ملامح الوجه، وتنبعث من الجثة رائحة كريهة، من الغازات المتصاعدة (شكل رقم: ١٠)



شكل رقم (١٠): جثة منتفخة بعد خمسة أيام من الوفاة.

٣- بعد خمسة أيام إلى عشرة تسيل مقلة العين، ويتساقط الجلد الأخضر الهش، كما تتساقط الأظافر، والشعر، وتظهر اليرقات الدودية المتعددة، وبخاصة حول الفم والأنف، وأعضاء التناسل، ثم بعد ذلك تتحل الأنسجة، وتسيل في التراب تدريجيًا، حتى تبقى العظام وحدها، بعد حوالي ستة أشهر إلى سنة.

والهيكل العظمي يتلاشى بدوره، ويعود إلى مكوناته الأساسية، مع مرور الزمن، إلا جزءًا صغيرًا منه، اسمه عجب الذنب[1] ذكره لنا

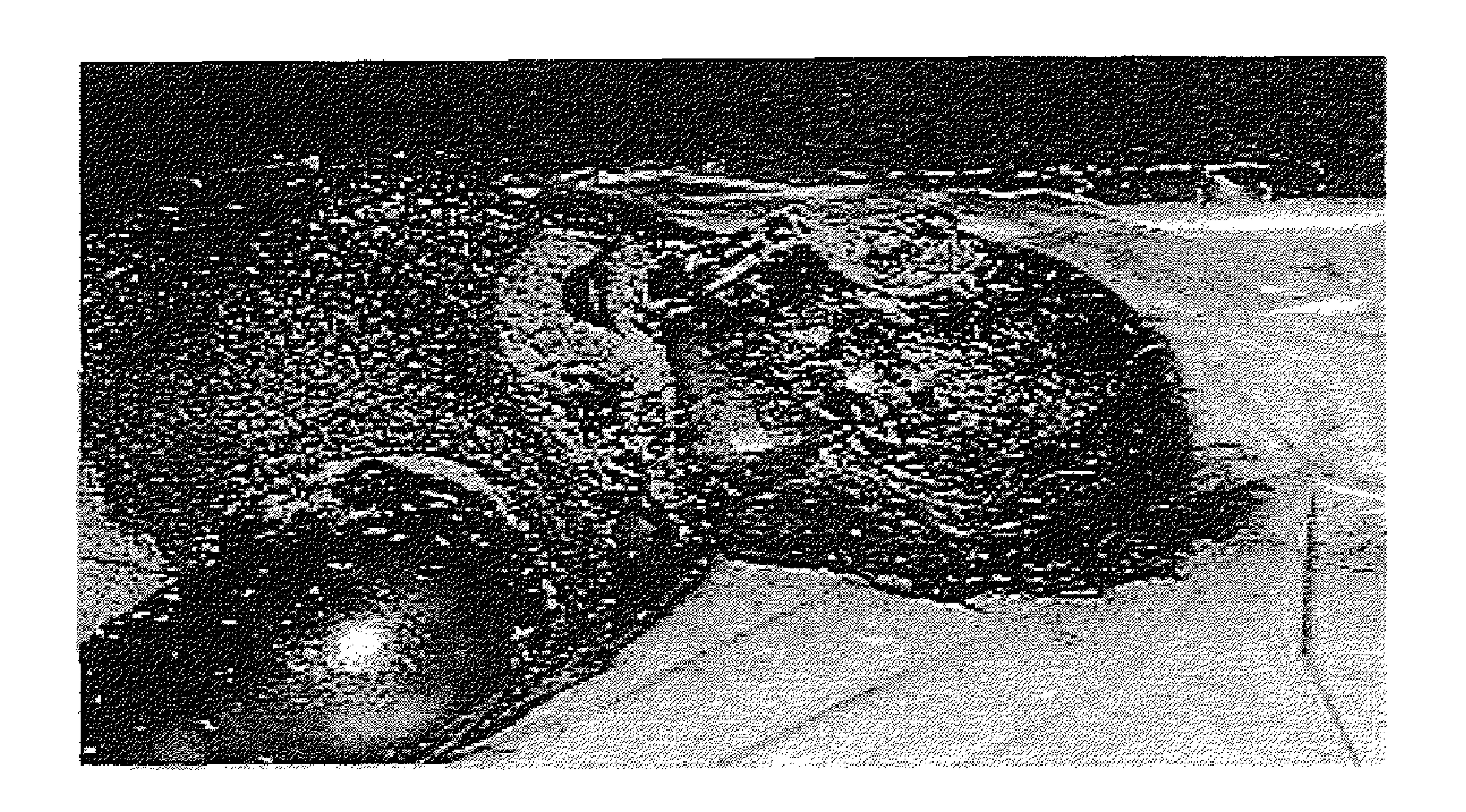
(١) عجب الذنب: جزء موجود داخل عظم العصعص الذي يقع في نهاية العمود الفقري.

رسـول الله (ﷺ) في أكثر من حديث شـريف قبل أكثر من أربعة عشـر قرنًا من الزمان، حيث قال: «إن في الإنسان عظمًا لا تأكله الأرض أبـدًا، منه يُركـب الخلق يوم القيامة. قالـوا: أي عظم هو يا رسـول الله؟ قال عجب الذنب»[1]. وقد حاول العلماء شـرقًا وغربًا صهر هذا الجزء، من عظم الإنسان، أو إذابته بالأحماض القوية، أو تكسيره، فلم يستطيعوا. وصدق رسول الله (ﷺ) فهو كما وصفه ربه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم ٣، ٤).

بعد الوفاة مباشرة يبدأ التفسخ البسيط، فتظهر رائحة خفيفة، لا يدركها الإنسان ولكنها جاذبة للحشرات، وخاصة إناث الذباب، فتسـرع لتضع بيوضها الصغيرة، دون أن يراها الإنسـان في الفتحات الطبيعية، التي يمكن أن تصل إليها كالمنخرين والفم وزاوية العين وطيـات الجلـد في الرقبة، وأحيانـًا المناطق التناسـلية... تضع آلاف البيـوض الصغـيرة، ثـم لا تلبث أن تفقـس، وتظهر يرقـات صغيرة عديدة بيضاء، لا يتعدى طول الواحدة مليمترًا واحدًا، ثم تتغذى على خلايا الجثة لتصبح حشـرات بالغة، طول الواحدة سـنتمترًا واحدًا، ثم تضع بيوضًا جديدة. (شكل رقم: ١١).

---

(١) رواه مسلم.



شكل رقم (١١): جثة مغطاة باليرقات البيضاء والديدان

وهكذا... أجيال عديدة من اليرقات والديدان، بحيث إنك في لحظة ما لا ترى إلا كومةً من الديدان تُغطي الجثة، وتتراكم فوقها، بل فوق بعضها، لتتلاشى هي والميكروبات، التي فسّخت الجثة من داخلها.

والغريب أن هذه اليرقات والميكروبات، التي كانت بالمليارات على الجثة وبداخلها، تتلاشى وتختفي كليًا بعد تحلل الجثة وتفسخها؛ لأنها يأكل بعضها بعضًا، ومن يبقى أخيرًا منها يموت من قلة الطعام، فيتحلل بفعل أنزيمات خاصة، موجودة داخل خلاياها. فسبحان من خلقها وهداها لوظيفتها! وسبحان من قهر الكبير والصغير من مخلوقاته بالموت والفناء! (شكل رقم: ١٢).



شكل رقم (١٢): قبر عائلي على شكل غرفة تظهر فيه بقايا الجثث وقد أصبحت ترابًا.

هذه هي القاعدة الخالدة، والسنة الربانية في هذه الحياة التي تحكم جميع المخلوقات، وخاصة أكرمها وهم البشر، فكل إنسان مهما كانت حياته منعَّمة، ومهما قدمت له من عيش رغيد، وفرص الراحة والصحة والعناية، فإن الموت آتيه لا محالة ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (العنكبوت: ٥٧) كتابًا مؤجلاً، حتى يستوفي كلٌّ حصته وما قسمه الله له في هذه الحياة.

فمهما كانت منزلته في الدنيا، فقيرًا أو غنيًا، صغيرًا أو كبيرًا، أميرًا أو حقيرًا، أبيض أو أسود، ذكرًا أو أنثى، فنهايته إلى الحفرة

الصغيرة.. إلى هذا القبر؛ ليدخل في مرحلة حياتية جديدة، هي حياة البرزخ، فيكون فيها تبعًا لعمله في الدنيا، إما في روضة من رياض الجنة، أو في حفرة من حفر النار[١].

وقد تعارف الناس على تسمية القبر ببيت الدود، وهي تسمية قديمة وصحيحة، قديمة لأن الناس في السابق لم يكونوا يعرفون الميكروبات المجهرية؛ لأنها لم تكن قد اكتشفت بعد، بل كانوا يذكرون ما كانوا يرونه رأي العين، وهي الديدان واليرقات الصغيرة سالفة الذكر، وهي تنمو وتتكاثر وتنهش جسد الميت، حتى يتلاشى في قبره.

---

(١) قَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ): «إِنَّمَا الْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ» (رواه الترمذي).

الميكروبات وأجساد الأنبياء

الحقيقة الخالدة التي وصفها الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ **(طه: ٥٥)**

القاعدة المطردة في هذا الكون، وهي التي تخضع لها رقاب البشر، طوعًا أو كرهًا، فهي سنة الهج في مخلوقاته، تجري على الجميع، وخلق لتنفيذها الميكروبات، وهي المخلوقات المطيعة لربها، والمنقادة لأوامره التي فُطرت عليها:

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (طه: ٥٠) هداها لهذا العمل، وبرمجها فطريًا على ذلك.

هذه القاعدة الراسخة والثابتة هي سنة الله في الكون، وهي ماضية إلى يوم القيامة، لا يعطلها ولا يحولها إلا الذي وضعها، متى شاء، ولمن شاء، وكيف شاء. رفعت الأقلام وجفت الصحف، فكل شيء بيده (ﷻ) يقلب الأمور كيفما يشاء. فالميكروبات من جنوده، وطاعتها لخالقها كاملة، ففي موقع معين يُرسلها على فطرتها، لتقوم بعملها، وتنفذ أمر ربها، وفي موقع آخر يسحب هذه الإمكانية منها، ويأمرها بعدم القيام بالذي تقوم به في العادة.

ومثال ذلك ما حصل مع الرجل الصالح عندما مر ببيت المقدس - التي خربها وهدمها الملك الكافر بختنصر - من شدة اندهاشه

بهـذا الخـراب، وما قاله العزير في حينهـا، ذكـر الله(ﷻ) ذلك في قرآن يتلى إلى يوم القيامة، وفيه الكثير من العبر العظيمة، والمعاني العلميـة الكريمـة ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقـرة: ٢٥٩).

في هذه الآية الكريمة يتحدث الله (ﷻ) عن الطعام والشـراب بأنه لم يتسـنه، أي لم يفسـد، بمعنى لم تحلله البكتيريا، وتخرِّبه كما تفعل عادة، وكما هو مألوف لدينا، رغم أنه مكث مئة عام. وفي الأحوال العادية لا يمكث الطعام والشراب في العراء أكثر من عـدة أيام، حتى تتلفه الميكروبات، ويتحول إلى مواد أخرى كليًا، ولا يبقى طعامًا على الإطلاق.. إذن أوقف الله - تبارك وتعالى - عمل الميكروبـات، الموجودة على الطعام والشـراب، وفي الهواء المحيط، فلم تحرك ساكنًا، بل كانت جنديًا مطيعًا لأوامر ربها!!

وفي الآية الكريمة نفسها يقول لـه (ﷻ): ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا

﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ (البقرة: ٢٥٩)، أي أن الله قد ترك الميكروبات على سجيتها، فحلّت لحم الحمار وعظمه، وأصبح ترابًا كغيره من المخلوقات، عندما تتفسخ وتتحلل. ثم أراه الآية العظيمة، كيف يُنشز الله العظام، ثم يكسوها لحمًا، فيعود حماره كاملاً كما تركه قبل مئة عام ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٥٩).

وفي الحادثة نفسها نرى - بمنطوق القرآن الكريم - حالتين مختلفتين تمامًا، لهما علاقة بالميكروبات؛ في الأولى أوقف الله (ﷻ) فعلها، فلم يتحلل الطعام والشراب، وفي الثانية أجرى سنته، وتركها تقوم بعملها المعتاد، فتحلّل الحمار كليًا، فالميكروبات مخلوقات مطيعة لخالقها تمامًا: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (المدثر: ٣١).

مثال آخر من القرآن الكريم: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ (الكهف: ١٨). هؤلاء الفتية النيام من يراهم يحسبهم أيقاظًا؛ لأن هيئتهم كالنائم ... ولكن كم ينام الإنسان؟! ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ (الكهف: ٢٥)، ومعروف علميًا أن من يلزم الفراش نائمًا أو جالسًا لمدة طويلة يصاب بتقرحات الفرشة. وخير وسيلة لتجنب ذلك، المداومة على تقليب المريض يَمنَةً ويَسرَةً، حتى لا تنضغط بعض

أجزائه لمدة طويلة، فتموت الأنسجة، وتهجم الجراثيم، وتسبب التقرحات، ولذلك مضاعفات خطيرة. فالله (ﷻ) أنامهم ثلاث مئة وتسع سنوات، وقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال، ولم يحصل لهم ما يحصل للإنسان بالعادة، وهذا أمر علمي عظيم، عرفه الأطباء حديثًا، بحكم الخبرة والعمل، وجعلوه من أهم الأسباب، التي يجب أن يؤخذ بها تجنبًا للتقرحات!

ولكن الله (ﷻ) يمكن أن يمنع ذلك دون الأخذ بالأسباب؛ لأنه على كل شيء قدير، ولكننا - نحن البشر - لا نستطيع ذلك. فقد جرى هذا مع الكلب الذي رافقهم المدة نفسها «وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد...»، والأصل أن يصاب الكلب بالتقرحات ويموت، ولكن الله قدّر غير ذلك، وأوقف حدوث التقرحات، دون الأخذ بالأسباب؛ لأن الأسباب والمسببات بيده (ﷻ) فهو يقدر ولا نقدر، وهو على كل شيء قدير.

هذا الخرق للعادة والسُنَّة الكونية هو الكرامة والمعجزة بعينها. وهذا حصل وجرى على أيدي الأنبياء الكرام، وما زال يحصل على أيدي الأولياء الصالحين[1]. والميكروبات من جنود الله المطيعة، التي تشهد بصمت على كرامات أنبياء الله، فلا تحلل أجسادهم، رغم تواجدها فيهم كغيرهم من البشر، ورغم أنهم يدفنون في

(١) إن كان على يد نبي أو ولي صالح فهو المعجزة والكرامة. وإن كان على يد فاجر أو كافر فهو من عمل الشيطان وأحواله..

الأرض، وفيها ما لا يحصى من الجراثيم. وهذا أمر ليس بغريب؛ لأن الله يُكرم أنبياءه في الدنيا والآخرة، كيف لا وهم خير خلقه، وهو أعلم بهم، يتحملون ألوان المشقة والمعاناة[1]، في سبيل تبليغ أوامره، طاعةً له، وانصياعًا لأوامره، يزهدون بالدنيا، ويطمعون بما عند الله، يخرجون من الدنيا، كما دخلوها لا درهم ولا دينار، رغم مقدرتهم على جمعها، إلى جنة عرضها السموات والأرض، عند مليك مقتدر، حيث الراحة الحقيقية، والحياة الخالدة.

هذه السنَّة الكونية في تحليل الأجساد، يستثنى منها الأنبياء الكرام، فعن أوس بن أوس قال: قال رسول الله (ﷺ): «**إن أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليّ**»، قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ يقولون: بليت. فقال (ﷺ): «**إن الله (ﷻ) حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»[2].

وإذا قرأنا سورة سبأ، فسنجد أن الله (ﷻ) يتحدث عن النبي الكريم سليمان (عليه السلام) قائلًا: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟

---

(١) قال رسول الله (ﷺ): «نحن - معاشر الأنبياء - أشد الناس بلاءً، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى العبد على قدر إيمانه، فإن كان صلب الإيمان شدد عليه البلاء. وإن كان في إيمانه ضعف خفف عنه البلاء» (صححه الحاكم على شرط الشيخين).

(٢) رواه أبو داود والنسائي.

يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ (سبأ: ١٤).

فإن الميكروبات، وبالتعاون مع الأرضة (وكلاهما من دواب الأرض) قد أكلت عصا سيدنا سليمان، وقد قدَّر العلماء في حينها أن تأكل العصا حتى ضعفت، وقد استغرق ذلك حوالي سنة، فلما ضعُفت أصبحت غير قادرة على أن تحمل ما عليها من ثقل فانكسرت. والعادة المألوفة والمثبتة علميًا، أن الجثة البشرية تتحلل أسرع من الخشب بكثير[1]. فلو أن الميكروبات والأرضة عملا حسب العادة في سنة الكون، لحللت جسد سيدنا سليمان أولاً، خلال عدة أسابيع، ثم بعد عام، أو أكثر، تحلل الخشب، المكون من مادة السيليلوز المعروف، كما ذكرنا سابقًا.

ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث، بل انقلبت الصورة تمامًا، وتحلل الخشب وتآكل، ولم يحدث للنبي الكريم شيءٌ! فمن الذي أعلم هذه الميكروبات أن هذا الجسد لنبي كريم؟! ومن الذي عطَّل سنة الكون، وغيَّر المعتاد، ووجَّه الميكروبات إلى الخشب، دون الجسد؟! بل من الذي دلَّ هذه الميكروبات التي أكلت صحيفة المقاطعة - السالفة الذكر - على الظالم فيها فأكلته وأفنته؟!

---

(١) ونحن نعلم وبتجربة بسيطة، إذا وضعنا قطعة من اللحم وقطعة من الخشب في الهواء. نلاحظ أن قطعة اللحم تتفسخ وتخرج منها رائحة نتنة، وربما تظهر عليها بعض الديدان خلال أسبوع ثم تتلاشى. ولكن قطعة الخشب يمكن أن تبقى شهورًا بل سنوات حتى تتلاشى وتتآكل.

وعلى المقدس فتركته ولم تأكله إجلالاً وتعظيمًا؟! يا إلهي ما أعظمك، وأحلمك بنا، نحن أهل العلم! نعلم كل هذا ونعرفه! ثم نعصيك!

قتل الإنسان ما أكفره ...

وما أنكره للجميل..!!

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ (الإسراء: ٨٩).

الميكروبات وأجساد الشهداء

ما أعظم الجهاد! وما أعظم فضل المجاهدين في سبيل الله! فقد رفع الله قدرهم، وأعلى منزلتهم، وأجزل لهم الثواب، كيف لا وهو ذروة سنام الإسلام! يُقدِّم المجاهد روحه رخيصة في سبيل الله ، لأداء أمانة في عنقه، عاهد الله أن يبذل لنشرها نفسه، ودمه، وماله.. هدفه هداية البشرية، بنور الإسلام العظيم[١].

لا يبغي بذلك مالاً، ولا جاهًا، ولا سلطانًا، إنما يبغي وجه الله وحده، وإعلاء كلمته، وإسعاد العالم بدينه، فإن قُتل المجاهد في سبيل هذه الأمانة العظيمة، والغاية السامية كان شهيدًا وله أجر الشهداء.

عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: «**لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها**»[٢]، فإذا كان هذا للمجاهد في سبيل الله وهو لم يُستشهد، فكيف بمن جاهد في سبيل الله واستُشهد وجاد بروحه ودمه في سبيل الله! لا شك أنه سيكون أعلى مرتبةً، وأشرف مكانةً، وأكرم منزلة عند الله.

فالشهادة منزلة رفيعة، ودرجة عالية، ومرتبة كريمة، وهي

---

(١) قال أبو هريرة (رضي الله عنه): «أيستطيع أحدكم أن يقوم فلا يفتر، ويصوم فلا يُفطر ما كان حياً؟ قيل: ومن يطيق ذلك يا أبا هريرة؟ قال: والذي نفسي بيده إنَّ نوم المجاهد في سبيل الله أفضل منه»، جاء ذلك في كتاب الجهاد لعبد الله بن المبارك.

(٢) رواه مسلم.

رفعة وشرف ومنحة من الله (ﷻ) وهي اصطفاء وانتقاء، إنها منّةٌ عظمى ونعمةٌ كبرى، ينعم الله بها على من يشاء من عباده، ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

ولإيمان المسلمين بما أعد الله للشهيد من مكانة عظيمة، انطلقت جحافل المجاهدين، وكتائب المسلمين، من صحابة رسول الله (ﷺ) والسلف الصالح، ومن اتبعهم بإحسان، تجوب أركان الأرض، مجاهدة في سبيل الله، والله يصطفي ويختار من يشاءُ من عباده المجاهدين.

فلا غرابة أن تكون الشهادة في سبيل الله مطلبًا وأمنية عزيزةً عند المؤمنين الصادقين والمجاهدين المخلصين، يسعون إليها بكل ما أوتوا.. والمجاهدون كُثر، ولكن الخُلَّص الذين يصطفيهم ربهم، ويختارهم إلى جواره قليل، ومن لم ينلها فعليًا، عمل لها وتمناها، وتضرع إلى الله أن يكتبها له. ورسولنا العظيم يقول: «**من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه**»[1].

فإن كان الشهداء في هذه المنزلة العظيمة من التكريم، وهم برفقة الأنبياء والصديقين، أحياءٌ عند ربهم يرزقون، ولا يصح أن نقول عنهم: أموات، بنص الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾(البقرة: ١٥٤)، فما

---

(١) رواه مسلم.

داموا هكذا، فلا غرابة أن تظهر لهم كرامات، ويشهد لهم بذلك الصامت والناطق، والمميز وغير المميز من مخلوقات الله؛ لأنها تكرم من أكرمه الله... كيف لا وهي صغيرها وكبيرها من جنود الله؟! ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (الفتح: ٤).

ولكن أي شهيد هو المقصود بهذه الكرامات؟ وعن أي نوع من الشهداء نكتب؟ بل عن أي درجة من درجات الشهادة نتحدث؟ ولأن الشهادة منزلةٌ رفيعة، ودرجةٌ عالية، ومرتبةٌ كريمة، بل مراتب ودرجات؛ فقد جعلها العلماء أكثر من قسم، واستخدموا لكل قسم مصطلحات معينة، منها:

أولاً: شهيد الدنيا والآخرة، أو شهيد المعركة، أو الشهادة الكبرى: وهذه تُطلق على الشهيد الذي يُقتل في قتال الكفار، مقبلاً غير مدبر، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، دون غرض من أغراض الدنيا. وهم الذين وصفهم ربهم سبحانه بأنهم أحياء يرزقون: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (آل عمران: ١٦٩)، وإنَّ كرامات عدم تحلل الأجساد من قبل الميكروبات والديدان، خاصة بهذا النوع من الشهداء، دونما إنقاص من أجر أصحاب الدرجات الأخرى من الشهداء وثوابهم، فالله – تبارك وتعالى – أعدّ

للمجاهدين في الجنة مئة درجة؛ لقوله (ﷺ): «**إن للجنة مئة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنها وسط الجنة وأعلاها، وفوقها عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة**»[١]

ثانيًا: شهيد الآخرة، أو شهيد غير المعركة، أو الشهادة الصغرى، وقد سمى رسول الله (ﷺ) أهلها شهداء في أحاديثه، ولكنهم لم يقتلوا في معركة الكفار، وإنما ماتوا ميتات مختلفة، كمن قتل مظلومًا أو مطعونًا أو مبطونًا أو بهدم أو حرق أو تَرَدَّى من شاهق، أو وقصته دابة فمات، أو قتل دون ماله أو دينه أو أهله، أو مظلمته، أو المرأة تموت بجُمع وصاحب ذات الجنب، أو من لدغته هامّة، أو مات على فراشه وكان قد سأل الله الشهادة بصدق، أو افترسه السبع، أو مات بالحمى، والميت في السجن مظلومًا، ومن مات غريبًا أو شريقًا أو مات بالسل وغيرهم. وقد ذكر السيوطي أنه جمعهم فناهزوا الثلاثين»[٢]

ولضبط الشهادة، وتحديد من هو الشهيد، وضع العلماء شروطًا للشهادة، استخلصوها من كتاب الله، وسنة نبيه (ﷺ)، هي:

أولاً: الإسلام:

فالكافر لا تُقبل له صلاة ولا زكاة ولا صوم ولا حج ولا جهاد، ولا غيره ما دام كافرًا، لذلك فالكفرة لا تنفعهم أعمالهم

---

(١) رواه البخاري.

(٢) الديباج، للسيوطي، تحقيق أبي إسحاق الحويني، الطبعة الأولى، ج٤، ص: ٥٠٨.

ولا عباداتهم؛ لأنها صادرة عن عقيدة باطلة، واعتقاد فاسد.

ثانيًا: النية:

إخلاص النية لله (ﷻ) مطلوبٌ من المسلم، في جميع عباداته وأعماله، فالنية الصالحة تحوِّلُ عمل المسلم إلى عبادة يُؤجر ويُثاب عليها، ولأهمية ذلك كان علماء السلف يفتتحون مؤلفاتهم بحديث الرسول (ﷺ): «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[1]

والنية والإرادة والقصد تأتي على معنى واحد، وهي حالات وصفات قلبية، لا سبيل للبشر إلى قياسها، بل لا يعلمها إلا الله. والشهادة منوطة بالنية، فلا يكون الشهيد شهيدًا إلا إذا قُتل في سبيل الله، لإعلاء كلمته، ونصرة دينه، مقبلاً غير مدبر.

ثالثًا: أن تكون الشهادة في قتال مشروع:

والقتال المشروع هو في سبيل الله، فالإسلام لا يعرف قتالاً إلا في هذا السبيل، لا يعرف القتال للغنيمة، ولا للسيطرة، ولا المجد الشخصي، أو القومي. إنه لا يقاتل للاستيلاء على الأرض، ولا للاستيلاء على السكان، أو الخامات الصناعية، والأسواق الاستهلاكية... إنه لا يقاتل لمجد طبقة، أو دولة، أو أمة، أو جنس،

---

(١) متفق عليه.

إنمـا يقاتل في سـبيل الله؛ لإعلاء كلمـة الله في الأرض، ولتمكين منهجه في تصريف الحياة وإشاعة العدل بين الناس، فإذا قاتل المسلم بهذا المفهوم الرباني ثم قُتل، فاز بالشـهادة ونال مقام الشـهداء عند الله.

رابعًا: أن يقتل في المعركة مقبلاً غير مدبر:

والخوف حالة نفسـية ضاغطة، تربـك صاحبها وتقهره أحيانًا، وتستشـري في كيانه كله، النفسـي والبدني. ولكن المؤمن يتغلب على ذلك بقوة إيمانه، لأنه يعلم أن الأجل بيد الله، وأن قوته موصولة بقـوة لله، الغالب على أمره، القاهـر فوق عباده، فلا يمكن لمؤمن مجاهد في سـبيل الله، أن يولي يوم الزحف، خوفًا على الحياة؛ لأنه يعلـم يقينًـا أنـه إلى الله، إن كان حيًـا، وإلى الله، إن كُتبـت له الشـهادة، فكيف يفكر بالفرار من كانت الشـهادة أمنيته، وها قد حانت فرصته؟!

فمن اجتمعت به هذه الشـروط الأربعـة، واصطفاه الله واختاره لجـواره فقد فـاز فوزًا عظيمًا، وأصبح الشـهيد الحـي، الذي ينال أوسمة الدنيا والآخرة، وسلسـلة من الامتيـازات والكرامات، التي يستحيل على مدارك البشر استيعابها.

وقد كثرت الأحاديـث عن كرامات عظيمة، ظهرت في أرض الجهـاد، ومـا زالت، وخاصة في الأرض المباركـة، في بيت المقدس

وأكنافه.. هذه الأرض الطاهرة، وهذا الجهاد العظيم الموصول، الذي لم ينقطع يومًا. فلا يوجد فيها شبر إلا ودب عليه نبي، أو جُبِل بدم صحابي، كيف لا وهي مهد الحضارات، ومهبط الأنبياء، وأولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين.

وقد ظهر في جهاد الأفغان من كرامات الشهداء الشيء الكثير. وقد سطر ذلك الشهيد الدكتور عبد الله عزام - رحمه الله - في كتاب أسماه «آيات الرحمن في جهاد الأفغان»، وفيه من الكرامات المذهلة، التي لا يمكن أن يصدقها إلا المؤمنون، الذين يؤمنون بقدرة الله (ﷻ).

وقد استشار العلامة المرحوم بإذن الله الشيخ عبد العزيز بن باز في جواز نشرها، فشرح الله صدره لذلك، كما استشار الأستاذ الدكتور عمر الأشقر، فقال له: أهم شيء هو صحة الرواية، فإن كان الرواة صادقين، فيجب أن نعلنها، سواء وافقت عقول الناس، أم لم توافق.

ورغم أن الحاقدين من غير المسلمين اتخذوا هذه القصص والكرامات مادة للسخرية واللمز والطعن بالدين، إلا أن التاريخ يعيد نفسه. فالشهيد الدكتور عبد الله عزام يقول في كتابه: «أذكِّر الإخوة الذين يعلمون ويمنعهم الحياء من ذكر هذه القصص. أذكِّرهم بحادثة الإسراء والمعراج التي أخبر عنها رب العزة على لسان

رسـول الله (ﷺ) ولم يكن في الأرض من يؤمن بهذه القصة سـوى أفراد يقلون عن مئة، اتخذها سدنة الكفر حديثًا دسمًا للتشكيك بصـدق النبي (ﷺ)... وإن أعداء الإسـلام لا يؤمنـون بالله ابتداءً ولا بدينه شريعة للحياة ومنهجًا للتعامل، فهل نريد أن نقنعهم عن طريق إخفاء هذه القصص. إن عالم الغيب كله ليس له حساب في تفكير الكفار، والمسـلم عقيدته معظمها قائمة على الإيمان بعالم الغيب، «فالإيمان بالله وملائكته والوحي والبعث والحشـر والنشر وعذاب القـبر والجنة والنار...» هـذه كلها لا وزن لها في أذهان هؤلاء الناس. فهل نتخلى عن هذا كله أم نفلسـفه فلسفة مادية منطقية، من أجل إرضائهم؟!!

مـن كان لا يؤمن بالله أصـلًا كيف له أن يؤمن بمعجزات الرسول (ﷺ)؟! كتسبيح الحصى في كفه[1]، وحنين الجذع إليه[2]، ونبـع الماء من بـين أصابعه [3]، ورده لعين أبي قتادة حين سـالت على خده فرجعت أحسـن عينيه[4]. ومسـحه على رجل عبد الله بن عتيك التي انكسرت فبرئت[5]، وكيف له أن يؤمن بكرامات الصحابة،

---

(١) رواه البزار والطبراني عن أبي ذر.

(٢) رواه مسلم عن جابر.

(٣) في الصحيحين عن جابر.

(٤) رواه الطبراني وأبو يعلى.

(٥) رواه البخاري.

مثل أم أيمن، التي خرجت مهاجرةً وليس معها زاد ولا ماء، فكادت تموت من العطش، فلما كان وقت الفطر، وكانت صائمة، سمعت حفيفًا على رأسها، فرفعته فإذا دلوٌ معلقٌ، فشربت منه حتى رَوِيَتْ، وما عطشت بقية عمرها[1].

ومولى رسول الله (ﷺ) الذي كلَّم الأسد، فلم يؤذه، بل مشى الأسد أمامه، حتى أوصله مقصده[2]، وأبو مسلم الخولاني الذي ألقاه الكفارُ بالنار، فوجد قائمًا يُصلي فيها، وصارت عليه بردًا وسلامًا[3]!

ويقول الشهيد الدكتور عبد الله عزام – رحمه الله – في كتابه: هذه قصص حقيقية، أغرب من الخيال، وواقع أشبه بالأساطير، سمعتها بأذني، وكتبتها بيدي، من أفواه الذين حضروا من المجاهدين، فهذه الكرامات سمعتها من رجال ثقات ما زالوا في خضم المعركة، وهي كثيرة، وتصل إلى حد التواتر، أما الرجال الذين رووا معظم القصص، فإني أظن – والله اعلم – أنَّ البخاري، لو كان حيًا لكانوا من أسانيده، (كناية عن صدقهم والتزامهم).

(١) رواه الصنعاني.
(٢) رواه الحاكم، وصححه على شرط مسلم.
(٣) صفوة الصفوة، ج٤ ، ص: ٣٠٨.

فمن الشـهداء من شـوهدت جثثهـم بعد سـنتين، وبعضهم بعد ثلاث سـنوات ولم تتغير، ورائحة أحدهم كالمسك، وبعضهم كان جرحه لا يزال ينزف دمًا. ومنهم الشهيد الذي صافح والده، بعد أيام من موته!! ومنهم الذي استشهد، واحتضن رشاشه ولم يستطع أحد أن يأخـذه منه حتى جاء إخوانه، وخاطبوه: يا يعقوب نحن إخوانك، فترك الرشاش وأخذوه! والشهيد شاه (حافظ القرآن) زار قبره عمر حنيـف، وقائد الجبهة، بعد سـنتين ونصف، فكشـفوا عن قبره، فوجـدوه كما وضعوه سـابقًا، ولكن الأعجب كمـا يقولون: إننا وجدنـا فوقـه عباءة سـوداء حريريـة، لم نر مثلها أبـدًا في الأرض، ولمسناها فإذا رائحتها أطيب من المسك والعنبر، أما عن مبيت الحيات في فراش المجاهدين دون أن تؤذيهم فحدِّث عن ذلك ولا حرج.

الميكروبات والغلام الشهيد

رغم أن الشهادة اصطلاحٌ إسلامي شرعي خاص بالإسلام والمسلمين، ولم يكن معروفًا عند العرب قبل الإسلام، ولا عند غيرهم، إلا أن الإيمان بالله، والالتزام بأوامره، واتباع أنبياء الله الكرام، أوجد مؤمنين هم أمة التوحيد، أمضوا حياتهم عُبادًا ونُساكًا لله تعالى، ومنهم من دفع حياته بسبب ثباته على دينه، فاستحق عند الله ما يستحق الشهيد، وظهرت له كرامات عظيمة أثناء حياته وبعد مماته.

فالشهادة قيمةٌ عظيمة، وهي منحة من الله، لمن أحبهم واختارهم من عباده، منذ خلق الكون، وجعل الحق والباطل في هذه الحياة. وقد أوجد الله شهداء قبل الإسلام، وظهرت لهم كرامات، وليس أدلَّ على ذلك من قصة الغلام الشهيد، الذي أكرمه الله بالإيمان على يد الراهب، وبسبب صدق إيمانه، والتزامه، فقد سبق شيخه، فأجرى الله على يديه كرامات، منها قتل الدابة، التي حبست الناس، وكان يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، ثم علم به الملك الكافر فحاول أن يرده عن إيمانه فلم يستطع، وبقي الغلام ثابتًا على دينه.. فقتله.

هذا الغلام الذي عاش مع قومه في نجران، بين بعثة عيسى (عليه السلام) وبعثة المصطفى (ﷺ)، واستُشهد قبل البعثة بسنين طويلة،

أُخرج من الأرض زمن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وإصبعه على صدغه، كما وضعها حين قتل[1].

وقصة الغلام الشهيد، وردت في حديث صحيح رواه مسلم، يقول فيه رسول الله (ﷺ): «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبِرَ، قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلامًا أُعَلِّمهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ في طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ، وَسَمِعَ كَلامَهُ، فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ، وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ، إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ، قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمْ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ، فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ؛ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ، أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ، فَلا تَدُلَّ عَلَيَّ، وَكَانَ الْغُلامُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ، وَالأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ، مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ، كَانَ قَدْ عَمِيَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ، دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ، فَأَتَى

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

المَلِكَ، فَجَلَسَ إِلَيْهِ، كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ، قَالَ: رَبِّي. قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ، حَتَّى دَلَّ عَلَى الغُلامِ، فَجِيءَ بِالغُلامِ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ، قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فَقَالَ: إِنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ. فَأَخَذَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى، فَدَعَا بِالمِنْشَارِ، فَوَضَعَ المِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ المَلِكِ. فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَوَضَعَ المِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ، حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالغُلامِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلا فَاطْرَحُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الجَبَلُ، فَسَقَطُوا. وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى المَلِكِ. فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ البَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ، فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى المَلِكِ. فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللهُ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي، حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قُلْ بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الغُلامِ، ثُمَّ

ارْمِـنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَـهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّـهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْـمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ، فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِـهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ، فِي مَوْضِعِ السَّـهْمِ، فَمَاتَ. فَقَالَ النَّـاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُـلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِـرَبِّ الْغُلَامِ، فَأُتِيَ الْمَلِـكُ فَقِيلَ لَـهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْـتَ تَحْذَرُ، قَدْ وَاللَّهِ نَـزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَـنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّـكَكِ فَخُـدَّتْ، وَأَضْرَمَ النِّـيرَانَ، وَقَالَ: مَـنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِـهِ، فَأَحْمُوهُ فِيهَـا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِـمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى جَـاءَتِ امْرَأَةٌ، وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَـتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهْ اصْبِرِي، فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ»

هـذا الغلام الداعيـة، الذي قدم روحه رخيصة في سـبيل الله، ليسـعد غـيره بنعمـة الإيمـان آثر مـا عنـد الله علـى كل العروض الدنيويـة التي قدمت له، فآمن قومه بدينه، بعدما رأوا ثباته، ففاز بثواب الداعية العامل الصابر، وبالشـهادة التي يتمناها كل داعية، فكان له ما كان من امتيازات عظيمة، أقلها أن حفظ الله جسده في قبره كل هذه السنين، فكرامة في الأرض، ونعيم في السماء.

الميكروبات وشهداء أحد

رجال حول الرسول العظيم، شرح الله صدورهم للإسلام، فآمنوا برسالته، ورأوا من المعجزات ما زادهم به يقينًا، فتغيرت حياتهم، وأعادوا صياغتها من جديد، فتركوا كل ما ينافي شرع الله على عتبة الإسلام العظيم. فكانت راحتهم في عبادة ربهم، وطاعة رسولهم. أجسادهم كأجسادنا، مكونة من المادة نفسها، وعليهم ما علينا من مخلوقات الله المجهرية، لكن أرواحهم الطاهرة، وأنفسهم الكبيرة، التي تعبت في مرادها أجسامهم، هي المختلفة، هي التي جعلتهم جيلاً مميزًا، فهم رهبان الليل فرسان النهار. إذا نادى منادي الجهاد، تركوا كل شيء وراءهم، طاعة لخالقهم، ويقينًا بأنَّ ما عند الله خير وأبقى. فمنهم من خرج للجهاد جُنُبًا(1) فلم يجد متسعًا من الوقت للاستحمام والتطهر، من شده تعلقه بإجابة نداء الجهاد.

هؤلاء الصحابة الكرام، الذين صدقوا الله (ﷻ) وأبلوا في معركة أُحد بلاءً حسنًا، وتمنوا الشهادة بصدق، وعملوا لها، اختارهم الله لجواره، ولتخذهم شهداء معركة، مقبلين غير مدبرين؛ وفازوا برضوان من الله وجنة عرضها السموات والأرض،

---

(1) عن ابن عباس (ﷺ) قال: لما أُصيب حمزة بن عبد المطلب وحنظلة بن الراهب (ﷺ) وهما جُنُبان، فقال رسول الله (ﷺ): « رأيت الملائكة تغسلهما» (رواه الطبراني في المعجم الكبير).

فكانت لهم كرامات عظيمة، منها ما هو في فلك مدارك البشر ومنها ما هو أعظم، لا قدرة للبشر على استيعابه.

فهذا جابر بن عبد الله (رضي الله عنه) قال: لما حضر أُحد، دعاني أبي من الليل، فقال: ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي (ﷺ)، وإني لا أترك بعدي أعز عليّ منك غير نفس رسول الله (ﷺ)، فإنّ عليَّ دينًا فاقضه، واستوص بأخواتك خيرًا، فأصبحنا فكان أول قتيل. ودفن معه آخر في قبر، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع الآخر، فاستخرجته بعد ستة أشهر فإذا هو كيوم وضعته...»[1].

وفي رواية لأحمد «... فبينا أنا في خلافة معاوية بن أبي سفيان، إذ جاءني رجل، فقال: يا جابر بن عبد الله، والله أثار أباك عمال معاوية، فبدا فخرج طائفة منه، فأتيته فوجدته على النحو الذي دفنته لم يتغير، فواريته»[2].

وعن جابر بن عبد الله (رضي الله عنه) قال: لما قتل أبي يوم أحد قال لي رسول الله (ﷺ): «يا جابر ألا أخبرك ما قال الله لأبيك؟ قال: بلى. قال: وما كلم الله أحدًا إلا من وراء حجاب، إلا أباك! كلَّم الله أباك كفاحًا، فقال: يا عبد الله، تمنَّ عليَّ أعطك. قال: فقال: يا رب تردني فأقتل فيك ثانية، فقال: سبق مني أنهم إليها لا يرجعون. قال: يا رب فأخبر من ورائي. فأنزل الله (عز وجل): ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه أحمد.

قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (آل عمران: ١٦٩)[١].

ومن رواية مالك عن عبد الله بن أبي صعصعة، أنه بلغه أن عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمرو الأنصاريين، كانا قد حفر السيل قبرهما، وكان قبرهما مما يلي السيل، وكانا في قبر واحد، وهما ممن استشهد يوم أحد، فحفر عنهما ليغيروا من مكانهما، فوجدا لم يتغيرا، كأنهما ماتا بالأمس، وكان أحدهما قد جرح، فوضع يده على جرحه، فدفن وهو كذلك، فأميطت يده عن جرحه، ثم أُرسِلت فرجعت كما كانت، وكان بين أحد ويوم حفر عنهما ست وأربعون سنة.

ويذكر القرطبي[٢] تحت عنوان «**لا تأكل الأرض أجساد الأنبياء ولا الشهداء وأنهم أحياء**» ... ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة في شهداء أحد وغيرهم. روى نقلة الأخبار أن معاوية – رحمه الله – لما أجرى عين الماء، التي استنبطها بالمدينة، في وسط المقبرة (مقبرة أُحد)، أمر الناس بتحويل موتاهم. وذلك في أيام خلافته، وذلك بعد أُحد بنحو من خمسين سنة. فوجدوا على حالهم حتى إن الكل رأوا المسحاة وقد أصابت قدم حمزة بن عبد المطلب (سيد الشهداء) فسال منه الدم.

وقد روى أهل المدينة أن جدار قبر النبي (ﷺ) لما انهدم أيام

(١) رواه ابن أبي عاصم في كتاب الجهاد ٥١١/٢، ح ١٩٦.
(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة...القرطبي ١٦٥.

خلافـة الوليد بن عبـد الملك بن مروان، وولاية عمـر بن عبد العزيز على المدينة. بدت لهم قدمٌ، فخافوا أن تكون قدم النبي (ﷺ) ففزع الناس، حتى جاء سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فعرف أنها قدم جده عمر (رضي الله عنه). وكان رحمه الله قتل شهيدًا»[1].

وقال شارح العقيدة الطحاوية: «وحرَّم الله على الأرض أن تأكل أجسـاد الأنبياء، أما الشهداء، فقد شـوهد منهم بعد مددٍ من دفنه كما هو لم يتغير، فيُحتمل بقاؤه كذلك في تربته إلى يوم محشره، ويحتمل أنه يبلى مع طول المدة، وكأنه - والله أعلم - كلما كانت الشهادة أكمل، والشهيد أفضل، كان بقاء جسده أطول»[2].

---

(١) وكانـت أمنيـة الفاروق (رضي الله عنه) تظهر في دعائه: «اللهم ارزقني شـهادة في سـبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك»، وقد نال ما تمنى.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (٤٥٦)..

شهداء .. وشهود .. وكرامات

الحق والباطل حيثما اجتمعا تصارعا، بغض النظر عن الزمان والمكان، وبغض النظر عن لغة أتباعهما، وهذه من سنن الله في كونه، وستبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن يستعرض التاريخ يجد أن هذه المشاهد تتكرر على المستوى الفردي والجماعي، وما زالت حتى يومنا، فظالم يبوء بالإثم، بسبب كفره وظلمه، ومظلوم يفوز بجائزته، بسبب ثباته واستقامته، وبذله، وعطائه، ومقارعته للباطل، إرضاءً لربه، وطمعًا بجنته.

وأول الفائزين بعد الأنبياء هم الشهداء، فما أعظم عملهم! وما أشرف ما عملوا له! فهم الذين يذودون عن دين الله، لمصلحة الآخرين، وهم الذين يقدمون أنفسهم وأرواحهم وأموالهم رخيصة لراحة غيرهم، وهم الذين اصطفاهم واختارهم ربهم لجواره، وهم الذين أكرمهم في الدنيا والآخرة.

وقيمة الإنسان - جسدًا وروحًا - تكمن في صحة اعتقاده والتزامه، فإذا مات بقي جسده في الأرض، وجرى عليه ما يجري على أجساد البهائم والحيوانات، من تحلل وتعفن واندراس، أما الروح فهي إلى نعيم مقيم، أو إلى عذاب مهين، إلا الشهداء، فتكريم لأرواحهم بالجنة، فهي في حواصل طير خضر[1]، وتكريم

(١) عن ابن كعب بن مالك عن أبيه أن رسول الله (ﷺ) قال: «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تعلُقُ من ثمرة الجنة أو شجر الجنة» (رواه الترمذي).

للأجساد في الأرض، وهم أحياء يُرزقون ولا يُرزق إلا حي.

ورغم أننا لا نجزم لأحد بالشهادة، إلا من أخبر عنه رسول الله (ﷺ)؛ لأن الشهادة منوطة بالنية، وأمْر النية موكولٌ إلى الله (ﷻ) ولا يعلم ما في القلوب إلا علام الغيوب، إلا أننا نستطيع ذكر فلان بالشهادة تيمنًا ودعاءً وحُسنَ ظن بظاهر حاله، وصالح أعماله وأفعاله، متمنين على الله أن يكون من الشهداء.

وقد كثرت الأخبار والروايات في كل مكان فيه جهاد واستشهاد.. رواياتٌ تتحدث عن أجساد الشهداء، التي لا تتغير ولا تتعفن، رغم مرور الزمن عليها، بينما أجساد الآخرين في الأماكن والظروف ودرجات الحرارة نفسها تتغير وتتعفن وتتدرس، وربما تأكلها الكلاب والسباع.

وقد سمعنا من ثقاتٍ، أفرادًا وجماعاتٍ، منهم من لا يزال على قيد الحياة، ومنهم من استشهد، سمعنا مرارًا وتكرارًا بأنهم شاهدوا بأعينهم أجساد الشهداء بعد دفنها لسنوات عديدة، لم تتغير ولم تتبدل، وجراحها نازفة، رائحتها المسك، ليِّنَة المفاصل، دافئة كأنما دفنت لتوها.

ومن هذه المشاهد والكرامات الناطقة، ما أورده الشهيد الدكتور عبد الله عزام في كتابه «آيات الرحمن في جهاد الأفغان»، حيث عاش المعركة بكل أبعادها، حتى اصطفاه ربه وأكرمه

بالشهادة.

ومنها ما يرويه الدكتور محمود النجار[1] - أستاذ الآثار المتخصص بالعظام البشرية في جامعة اليرموك الأردنية - حيث سمعت منه مباشرة، واصفًا ما شاهده بأم عينه، من شهداء الجيش المصري، الذين جاهدوا في فلسطين ضد أعداء الله اليهود عام ١٩٤٨م. حيث قال: إنه شارك شخصيًا مع شقيقه عام ١٩٥٦م في احتفال تكريمي أقيم لشهداء من الجيش المصري، الذين جاهدوا في سبيل الله ضد اليهود عام ١٩٤٨م. وقد رأى بأم عينه في ذلك الاحتفال الذي نُقل فيه حوالي خمسة وأربعين شهيدًا بملابسهم، ما زالت أجسادهم كما هي، رغم مضي ثمانية أعوام على استشهادهم! وهناك مشاهد وكرامات وقصص كثيرة، ما زالت تذكر عن أبطال من الجيش الأردني، الذين قضوا في سبيل الله دفاعًا عن حمى الإسلام، وأولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين[2].

ومن ضمن هذه القصص الكثيرة التي تذكر أيضًا عن الشهداء الذين قضوا على أرض الحشد والرباط، أرض الأردن المباركة، ما

---

(١) الدكتور محمود النجار: درس الآثار في أمريكا - جامعة كنساس، وعمل هناك لمدة طويلة، ثم التحق بمعهد الآثار - في جامعة اليرموك في الأردن، وهو لا يزال على رأس عمله.

(٢) ومنهم الشهيد العريف حسين محمد عوض المومني من بلدة عبين في محافظة عجلون - الأردن. الذي استشهد على أرض فلسطين عام ١٩٦٧م في منطقة طوباس، ثم وُجدت جثته بعد ما يزيد على عشر سنوات من استشهاده كاملة لم تتغير، وقد رفض أهل طوباس نقل جثة الشهيد إلى مسقط رأسه، تيمنًا بها وتكريمًا لها.

رآه الناس رأي العين من شهداء مغارة الشوبك، التي دفنت فيما بعد. وعن شهيد معان، الذي ظهر كاملاً كما هو أثناء شق الطريق.

أما قصة الشهيدين[1]، الذين قضيا أثناء المعركة مع اليهود في ١٩٦٧م في غور الأردن، حيث قصفت سيارتهما، التي كانت تنقل الذخيرة، من قبل طائرات العدو، واستشهدوا فورًا في مكانهما، ووضعت جثتاهما في مغارة قريبة، وتركتا بسبب حالة الطوارئ، والانشغال بالحرب. ولم يرهما أحد حتى عام ١٩٧٠م، عندما تمركزت الكتيبة الهاشمية العاشرة في تلك المنطقة، وكانوا يبحثون عن مغارة آمنة لتكون مقرًا لقيادة الكتيبة، وعندما وجدوا المغارة، ودخلوا لترتيبها، فوجئوا بوجود جثتين كاملتين كما هما (بعد ٣ سنوات من الاستشهاد)، جثة منهما كاملة إلا من حرق لنصف الوجه بسبب الإصابة، ووجد بجيبه ثلاثة دنانير، وشهادة التعين في الجيش الأردني. أما الجثة الثانية فهي كاملة إلا من حروق في مناطق مختلفة من الجسم.

وقد جمع قائد الكتيبة الهاشمية أفراد الكتيبة، وأطلعهم على الجثث، حيث رأوها رأي العين، وقال لهم ما معناه: «إن الكلام الذي نسمعه من الشيوخ صحيح، وما ترونه أمامكم دليل عملي على مصداقية هؤلاء»، فقام جنود الكتيبة بحفر قبرين على تلة

---

(١) هذه القصة سمعتها مباشرة من سماحة الدكتور الشيخ نوح القضاة، حيث كان مفتيًا للجيش الأردني في حينها، ثم أصبح قاضيًا للقضاة في الأردن لاحقًا.

مشــرفة، ونقلــوا الجثتين إليهما. وهما مــا زالا ـ في مكانهما ـ في غور الأردن، شاهدين على كرامة الشهداء.

أمــا الشــيخ المجاهد حافظ ســلامة، الذي ذكر قصة الشــاب المجاهد أســامة إبراهيم. حيث شــارك في معركة ضد اليهود ســنة ١٩٧٣م «معركة الدفرســوار»، ثم استُشــهد ودُفن حيث قُتل، وقد ضــرب اليهــود حصارًا علــى تلك المنطقة، بقيادة شــارون لمدة ســتة أشــهر. وعندما فُك الحصار، يقول الشيخ حافظ سلامة: وإذا بأهل أســامة إبراهيم يأتون للشيخ، ويخبرونه بوصية الشهيد أسامة، التي يطلب فيها أن يتولى الشــيخ حافظ ســلامة تجهيزه، والصلاة عليه، ودفنــه بيديــه... فلمــا رأى الوصية ســار مــع أهله، إلى حيــث دُفن، وكان قد مضى على استشــهاده ســتة أشــهر حينها. فلما كشفوا عن جسده، أقسم الشيخ حافظ سلامة، وهو رجل مجاهد ثقة، أنه وجده وبحضور أهله مبتســمًا، مفروق الشعر، كأنه خارج لتوه من الاستحمام!!

وأما ما ذكره لي شــخصيًا الدكتور يحيى إسماعيل[1] - أستاذ الحديث وعلومه في جامعة الأزهر، ورئيس هيئة علماء الأزهر السابق - فهو أعجب وأغرب، حيث قال: «كنت أستاذًا مشاركًا في كلية الدعــوة وأصــول الديــن في جامعة أم القرى عــام ١٩٨٩م، وحضرت

---

(١) التقيتــه في الكويــت في محاضرة لي عــن «الميكروبات وكرامات الشــهداء»، بتاريخ ٢٠/٣/٢٠٠٤م.

توسعة الحرم المكي في حينها من ناحية سوق الليل. وأثناء عمل الجرافات، وإزالة أنقاض البيوت، وحفر الأرض وتسويتها، ظهرت مجموعة من الجثث، وقد كنت مع من شاهدها كما هي وكأنها لُفّت من ساعتها ... فقيل في حينها: إنهم من شهداء الصحابة، ذلك أن الدفن في هذا المكان غير معهود منذ أمد طويل.

وبعد التحري والسؤال والتنقيب، وحيث إنه لم تدر معارك مع الصحابة (ﷺ) في ذلك المكان. كان الاحتمال الأرجح الذي رجحه لنا فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد - أستاذ التفسير وعلوم القرآن، في جامعة أم القرى، في حينها وفي الأزهر قبلها، وكان عضو رابطة العالم الإسلامي - هو أن هذه جثث بعض المؤذنين المحتسبين[1] الذين كانوا في الحرم المكي، منذ عقود سابقة، ودفنوا في ذلك المكان.

(١) عن عبد الله بن عمر (ﷺ) قال: قال رسول الله(ﷺ): «المؤذن المحتسب كالشهيد المتشحط في دمه إذا مات لم يدود في قبره» المنذري في الترغيب والترهيب ج١/١٨١ رقم ٢٤.

شهداء الأرض المباركة

أرض مباركة، وشباب نشئوا في طاعة الله، قلوبهم تعلقت بالمساجد، حملوا هموم أمتهم بصدق، فتقدموا، وقدموا أرواحهم رخيصة في سبيل الله، تاركين الدنيا وما فيها، طامعين بما عند الله، تراهم يعيشون بين الناس، ولكنهم ليسوا مثلهم. فقد تعبت أجسادهم في مطالب أنفسهم الكبيرة، كيف لا وهم الذين حفظ الله مراهقتهم، وبلّغهم حكمة الكبار، على صغر سنهم، فعاشوا هموم الأمة وقضاياها؟!

فإذا استعرضت السيرة الشخصية لهؤلاء الأبطال، وجدتهم يشتركون في قواسم عظيمة من النضوج المبكر، ومعرفة طبيعة الصراع بيننا وبين يهود، فهم أصحاب قلوب عامرة بالإيمان، أمنيتهم المشتركة «أن تدخلني ربي الجنة هذا أقصى ما أتمنى»، فكانت أقصر الطرق لذلك جهاد اليهود، والاستشهاد في سبيل الله.

لذلك نجد المجاهد منهم جادًا في حياته، ملتزمًا بأوامر ربه، دائم التعلق بالمساجد، حافظًا لكتاب ربه، عطر السيرة، حسن الأخلاق، متميزًا بإخلاصه وحسن صحبته، زاهدًا متعبدًا، دائم الحب والذكر لمن سبقه في الاستشهاد، مُلِحًا في دعائه على الله أن يرزقه الشهادة مقبلاً غير مدبر.

فهؤلاء هم النجوم المضيئة في ليل أمتنا الحالك، فلو بحثت عن

الوعـي فهم قمته، وعن الالتزام فهم أساتذته، وعن الإخلاص فهم نماذجه، هؤلاء هم أساتذة الجيل الإسلامي المعاصر، إنهم رواد الحاضر والمستقبل، ولذلك اصطفاهم واختارهم ربهم دون غيرهم. فالناس كثر، ولكن العاملين قليل، والمجاهدين أقل، ولا يختار الله منهم ويصطفي إلا الصفوة الخُلَّص.

فهؤلاء الذين يجاهدون على الأرض المباركة دفاعًا عن حياض الإسلام والمسلمين حول أولى القبلتين، يقاتلون عدو الإسلام الأول، اليهود الذين جبلت أنفسهم على كل أنواع نواقص النفس البشرية، فلا عقود ولا عهود ولا مواثيق.. أنانية قاتلة، وكره متمكن للإسلام وللمسلمين، فمن يقاتل مثل هذا العدو، ويجعل من نفسه رأس رمح في المواجهة، نيابة عن المسلمين، ويقتل على هذه الأرض الطاهرة، وبهذه النية الكريمة، فكيف لا تكون له كرامة مثل غيره، بل كرامات وكرامات؟!

كرامات هؤلاء تترى، فنور القبور، ورائحة المسك في دمائهم الزكية، في ثيابهم بل في حجارة قبورهم وتربتها، بل تفوح من أجسادهم حال استشهادهم.. كرامات لم يشاهدها واحد فقط أو يذكرها شخص بمفرده، حتى تضعف روايته، ولكنها جموع الحاضرين والمشيعين، بل مئات الآلاف منهم، حتى أصبحت لكثرتها مألوفة عندهم.

وهناك سلسلة طويلة من الشهداء، كل له قصة مع الكرامات، ولكن سأكتفي بذكر أمثلة منها.

«نسمع كثيرًا عن كرامات الشهداء، وغالبًا ما كنت أعتقد أنه مبالغ فيها ولا أصدقها، رغم إيماني بوجودها، لكن ما حدث قبل أيام جعلني أصدق كل ما أسمعه عن كرامات الشهداء، فعندما فتحنا القبر وجدنا الشهيد سمير كما تركناه قبل خمسة عشر عامًا، وكأنه استشهد قبل ساعة واحدة»... (بهذه الكلمات علق ماهر كتوت من البلدة القديمة في نابلس، حينما شاهد - كما المئات غيره - واحدة من تلك الكرامات)، فقد كان جسد الشهيد سمير شحادة، الذي استشهد قبل خمسة عشر عامًا سالمًا من أي تغيير، كان على حالته يوم استشهاده!!

والقصة الكاملة التي رواها الثقات ممن شاركوا فيها، نُشِرت في الصحافة[1]، حيث كان الشهيد سمير من نشطاء الانتفاضة الأولى، فكان شغله الشاغل مقارعة الاحتلال، يشارك برمي الحجارة والقنابل اليدوية المصنوعة محليًا على اليهود. وكان دائم التمني والتغني بالشهادة. وفعلاً نال ما تمنى، ففي ١٩٨٨/١٢/٢٨م استشهد في حي الياسمينة - نابلس، ودُفن في مقبرتها. وكانت وصية والدته المتعلقة به أن تدفن عند موتها في قبر ابنها سمير.

---

(١) السبيل، عدد ٥١٢، تاريخ ٢٠٠٣/١٠/٤م، والمصدر من فلسطين المحتلة (نابلس) سمير خويرة.

وقدر الله - تبارك وتعالى - أن تموت بعد خمسة عشر عامًا في ٢٠٠٣/٩/٢٧م، فاجتهد أولادها في استفتاء أهل العلم بالسماح لهم بتنفيذ وصيتها، لتدفن حيث أوصت. وقد كان لهم ذلك، كما يقول ابنها عامر شحادة ظنًا منهم أن مدة خمسة عشر عامًا كافية كي لا يبقى من جسد شقيقه سمير إلا عُظيمات بسيطة.

ولكن الأمر كان على غير ما ظنوا، فيقول عامر: إنني لا أتحدث عن رائحة المسك أثناء فتح القبر، ولكن هلّل الناس وكبروا عندما وجدوا المفاجأة الكبرى. وجدوا جسد الشهيد سمير كما وضعوه قبل خمسة عشر عامًا، لم يأكله الدود، ولم يتحلل، ولم يتفسخ، ولم يتغير، حتى ملابسه لم تتلف، وعندما لمسناه وجدناه ما زال مبلولاً من مياه الأمطار التي تساقطت يوم استشهاده، وكذلك رأسه كان مبتلاً ... وكان شعره ممشطًا كما لو أنه قد سرحه قبل لحظات..».

ويتابع شقيقه عامر شحادة قائلاً: وزادت دهشتنا عندما هممنا بتحريكه لنفسح المجال لدفن والدته، فإذا بجسده ما زال دافئًا ودماؤه الحارة ذات اللون الأحمر القاني تسيل من جديد، وكأنه أصيب قبل دقائق معدودة...».

الله أكبر.. تهتف بها قلوبنا، وتخشع لعظمتها نفوسنا، أمام هذه الكرامة العظيمة، التي توقفت بسببها السنن، تكريمًا للشهداء، الذين شهد الله لهم بصدق النية، وصلاح الطوية، وحسن

السيرة، ونبل المسيرة، وشهد الناس عظمتهم في البذل والتضحية والفداء...!

وتتوالى قصص شهداء الأرض المباركة، شهداء الأقصى، فهذا الشهيد محمد ريحان، الذي استشهد في ٢٠٠٢/٢/١٨م في بلدة تل، جنوب غرب نابلس، يفاجأ شقيقه جعفر، ومن كان معه من العائلة، وأهالي بلدته، عندما كشفوا عن جثمانه بعد مئة يوم من استشهاده، بغرض تجهيز القبر جيدًا، وبالطريقة الصحيحة - فوجئ الجميع برائحة المسك تفوح بعبقها من الجثمان لدى رفعهم بلاط القبر، وقد كان الذهول واضحًا على الجميع، عندما وجدوا دم الشهيد ما زال ساخنًا، وعرقه على جبينه، وقد مسحه شقيقه جعفر أمام الناس، الذين انشغلوا بالحمد والتكبير، والشكر لله على كرامة الشهيد. ويقول شقيقه: إن منظر أخيه في القبر يوحي بنومةٍ هادئةٍ هانئةٍ وقد هم بإيقاظه!!

أما الشهيد محمد أبو زيد الذي ولد في رمضان، ولاقى وجه ربه وهو صائم، في السابع من رمضان ٢٣/ ٤/ ١٩٨٨م، في بلدة قباطية جنوب جنين، في مواجهة مع جنود العدو، حيث أصيب ببضع رصاصات، فارق الحياة على إثرها، وصعدت روحه إلى بارئها، وقد صور هذه اللحظات مصور صحيفة شنسرين الألمانية[1]، وقد حاول اليهود اختطاف جثته، ولكنهم فشلوا، ودفن جثمان الشهيد في

---

(١) كتاب الطيور الخضر، ج٢، حافظ الكرمي، ١٩٩٣م.

المقبرة، وعاد الناس للإفطار في بيوتهم، إلا محمد أبو زيد، فقد كان إفطاره في الجنة؟ وكان الناس يتحدثون عن رائحة العطر الفواح، الذي كان يفوح من بقايا دمه هنا وهناك.

وقدر الله أن يستشهد شاب آخر من القرية نفسها، ولكن بعد ثمانية أشهر من استشهاد محمد أبو زيد. وحُمل للدفن في المقبرة نفسها، وكان قدرًا أن حفروا له قبرًا بجانب قبر محمد أبو زيد، فانهار جزء من قبر محمد، فبدا جسم الشهيد محمد، كما دفن لم يتغير، ولم يتحلل، وكان كيوم دفن، قبل ثمانية أشهر؛ كرامة من الله - تبارك وتعالى - لهذا الشهيد المقدام.. ودفعة إيمانية قوية للناس الذين رأوا هذا المنظر المهيب، الذي يجعل من الشهادة أمنية حقيقية يطلبها ويسعى إليها كل من يفكر بالجنة.

وكأن الله - تبارك وتعالى - قد اطلع على المسلمين، حكامًا ومحكومين في أنحاء العالم، فوجدهم - وهو بهم أعلم - لاهين ومفرطين، أداروا ظهورهم للجهاد، وانغمسوا بمشاغل الدنيا وملذاتها، وتركوا إخوانهم المجاهدين في فلسطين، يقارعون بأيديهم المتوضئة، وصدورهم العارية، إلا من الإيمان بالله، والعامرة بالقرآن الكريم.. يقارعون جيشًا مدججًا مدعومًا بكل أنواع السلاح والتكنولوجيا... تركوهم بلا سند مادي.. فأراد الله - الذي يمهل ولا يهمل - أن يوسّع على المجاهدين في الصبر

الإيمـان... فأظهـر لهم هـذه الكرامات، الـتي يسـتحقونها؛ ليرفع معنوياتهم، ومسـتوى إيمانهم، ويثبتهـم على الحق، ويطمئن قلوبهم بأنهـم علـى الطريق الصحيح... لا يضرهم مـن خذلهم ولا من انفض عنهـم ولم يسـاندهم، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (يوسف: ٢١).

والسلسـة طويلة وطويلة جـدًا... والقافلة تسـير... والجنة ترحب وتزدان..! وقد ذكر الشهيد جمال سليم الداموني في كتابه الشهادة والشـهداء[١] يقول: «لقد شاهدت بنفسي وشاهد معي كل من شارك في دفـن الشـهيد علي عاصـي، من قرية قـراوة، في منطقة نابلس، الـذي استشـهد بتاريـخ ١١/٧/١٩٩٤م، فقـد ظل تراب قـبره يفوح مسكًا ورائحة عطره طيبة لأيام طويلة، بل إني احتفظت بحجر من قبره ظل مدة طويلة تنبعث منه رائحة طيبة عطرة»

وقد رثى الشـاعر الفلسطيني محمد شـحادة الشهيد القسامي علاء الدين محمد عياد بعد استشـهاده بيومين، بأبيات شعرية توقع فيها أن تخلد السماء اسمه، وتبعث بعلاء جديد، حيث قال:

هذا الفتى تكتب الأمجاد سيرته   فيأتيه فخرًا بالعلاء علاءُ

ولكنـه لم يكن يتوقع أن يكون الجواب بهذه السـرعة، ولم يكن يعلم أن السماء ستلبي النداء بهذه الكيفية. حيث شهدت بيت لحم مكرمـة ربانية يتوافد على رؤيتهـا الآلاف، الذين يؤمون أحد

---

(١) كتاب الشـهادة والشهداء للشيخ جمال سـليم الداموني، ١٩٩٩م، وقد استُشهد هذا الشيخ في نابلس بتاريخ ٣١/٧/٢٠٠١م.

البيوت الكائنة بمخيم عايدة للاجئين، لمشاهدة طفل رضيع اعتبره البعض معجزة رزقت به عائلته في ليلة القدر.

وتبدأ القصة بأن يوصي الشاب علاء عياد، المجاهد القسامي صاحب السمعة الطيبة، والسلوك المشهور بالاستقامة، شاب تعلق قلبه بالمسجد، ومن حملة كتاب الله، يجاهد لإعلاء كلمة الإسلام، هذا الشاب يوصي شقيقه إياد، الذي كانت زوجته في بداية حملها، أن يسمي مولوده «علاء» إذا كان قد كتب الله للموصي الشهادة.

وتمر الأيام والمجاهد يبحث عن الشهادة، ويعمل لها حتى رزقها، على إثر الجريمة البشعة التي ارتكبتها الوحدات الخاصة الصهيونية في ٢٠٠٣/٣/٢٥م، بالقرب من فندق شبرد، بمدينة بيت لحم. وقد توافدت أعداد كبيرة من المواطنين على منزل العائلة في مخيم عايدة، بالقرب من مدينة بيت لحم، لتقديم التهاني بإحراز هذا الشرف العظيم، ورغم أن العدو حاول أن يمحو ذكر الشهيد في الدنيا بقتله، فإن الله (تعالى) أدخله سجل الخالدين، وأحيا اسمه في الدنيا، ولكن بلون جديد، وطريقة جديدة، وغير معتادة، وأدخله وإخوانه مع النبيين والصديقين وحسن أولئك رفيقًا، وتمضي شهور الحمل عند زوجة شقيق الشهيد بسلام، وينمو الجنين، وتتدخل العناية الإلهية، لتخلد الشهيد، ويرى الناس ذلك بأم أعينهم. فقد ولد الجنين في المستشفى الفرنسي بمدينة بيت لحم، في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك، ليكون مولودًا ذكرًا، مسطرًا على خده

الأيمن اسم عمه الشهيد علاء.

وكانت مفاجأة، بل بشرى خير للعائلة كاملة، بل للناس جميعًا، الأحرف الثلاثة الأولى من اسم الشهيد علاء واضحة غاية الوضوح، على الخد الأيمن، في حين يظهر الحرف الرابع «الهمزة» خلف الأذن بشكل واضح.

وقد توافد أكثر من ستة آلاف مواطن من محافظات بيت لحم والخليل والقدس، منهم المسلمون ومنهم غير ذلك، منهم أطباء وأكاديميون من الجامعات المحلية، إضافة إلى عدد كبير من الصحفيين، ومحطات التليفزيون المحلية والفضائية، على منزل العائلة، لرؤية هذا الطفل بل هذه المعجزة. وقد ظهر ذلك مرارًا وتكرارًا على شاشات التلفزة، والصحف الأجنبية والمحلية، وعلى صفحات الإنترنت (شكل رقم: ١٣).



صورة الطفل وقد بدت على خده كلمة علاء وإلى جانبه صورة عمه الشهيد علاء.

هذا الطفل سُمي علاء، على اسم عمه الشهيد، حسب توصيته، وكأن الشاعر الذي رثى الشهيد كان يعرف بأن علاء الجديد سوف يأتي من جديد وقد توشح خده باسم عمه الشهيد علاء:

هذا الفتى تكتب الأمجاد سيرته فيأتيه فخرًا بالعلاء علاءُ

وصدق هذا الشاعر، فقد مُجِّد في الأرض، ورزق كرامات، وخلودًا في جنان النعيم. وما هذه القصص إلا غيض من فيض، وقبس من مشكاة، وهناك ما هو أكثر، فجميع الشهداء يشتركون في ظاهرة الرائحة الطيبة، والمسك الفواح من أجسادهم، وأماكن نومهم، حتى من زوجاتهم وأمهاتهم، فزوارهم يشمونها بكل وضوح، بالإضافة إلى السرعة التي تمشي بها جنائزهم، فتراها وكأنها تركض، والذين يحملونها لا يبدو عليهم أنهم يرفعون ثقلاً على أكتافهم، إشارات خير وبشرى، تطمئن قلوب ذويهم، وتشحذ همم محبيهم، كيف لا ونحن نرى أن كل شهيد ينبت خلفه مئة، كل ينتظر دوره بفارغ الصبر، ليلحق بصحبه من أهل السابقة، هتافه الذي بين جوانحه ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ (طه: ٨٤).

والقافلة تسير..!!

الشهادة مقرونة بالجهاد، ومعلقة به تعلق الروح بالجسد، وما دام في هذه الأمة قرآن يُتْلَى، وسنة تُحفظ، فإن راية الجهاد لن تُنكَّس، ودم الشهداء لن يجف أو يبرد، خاصة على ثرى هذه الأرض المباركة، التي لا يوجد فيها شبر إلا مشى عليه نبي كريم، أو اختلط بدم شهيد.

إن كل ذرة من ترابها تعبق مسكًا من دماء الشهداء، التي روت سهولها ووديانها وهضابها وجبالها، إن كل ذرة رمل أو صخرة أو شجرة أو ربوة فوق هذه البلاد تحكي قصة مجاهد، وتروي حكاية شهيد من شهداء السلف الصالح، من الصحابة والتابعين، ومن حمل لواء الجهاد بعدهم، إلى يومنا هذا، ثم من يلحق بهم من الخلف الصالح إلى أن يأتي الله بأمره.

هذه الأرض المباركة مهد الحضارات، ومهبط الأنبياء، وسط العالم ومركزه، تتصارع عليها الأمم منذ القدم، وستبقى معركة الحق والباطل قائمة عليها، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فما أصح ما قاله الرجل الصالح الخضر، الذي ذكره الله في قرآن يتلى إلى يوم القيامة «﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾(الكهف: ٦٥)، حيث أجاب نبي الله موسى (عليه السلام) كما ورد في الحديث الصحيح «... **فسلم عليه موسى،**

فقـال له الخضر: أنَّـى بأرضك السـلام...»[1] ، أي: ومن أين لأرضك السـلام؟... فهذه الأرض المباركة لن تعرف السلام الحقيقي، فهذا قدَرُها وقَدَر أهلها، وما أحسنه من قدر...!

فهو تكريم من الله لسـاكنيها، فهم في رباط إلى يوم الدين، يؤجـرون عليه ويثابون. وهو اصطفاء واتخاذ واختيار إلهي، وشـهادة عظيمـة للطائفة المنصورة بـإذن الله «**في بيت المقدس وأكناف بيت المقـدس..**»[2] ، فهـم في جهاد مـع أعدائهم إلى أن يأتـي أمر الله، لا يضرهـم مـن خذلهم ولا مـن خالفهم، ولذلك ستسـتمر هـذه الأمة بتقديم قوافل الشهداء، قافلة تتبعها قافلة إلى أن تقوم الساعة.

قافلـة الشـهداء أولها مـع رسـول الله (ﷺ) في الجنـان العلا، وأفرادها يرددون صوت حاديهم:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي جنب كان في الله مصرعي

فمنهم من قضى نحبه راضيًا مرضيًا عنه، ومنهم من ينتظر. وما أكثر المنتظرين! كلهم يعمل بإقبال منقطع النظير، وبلهفة وشوق، يرددون قول من قال: «غدًا نلقى الأحبة محمدًا وصحبه»

---

(1) حديث صحيح رواه مسلم في قصة سيدنا موسى مع الخضر كما وردت في سورة الكهف، وورد فيه ما معناه أن هذه الأرض لن تعرف السلام ... فهي في صراع مستمر.

(2) قال رسول الله(ﷺ): «لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين لعدوهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك، قالوا: يا رسول الله وأين هم؟ قال: ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس» رواه أحمد.

والنـاس في هـذه الأرض الطيبة بـين صغير تَفَتَّحـت عيناه على الشـهادة وحُب الاستشـهاد، حتى أصبحت نشـيده الدائم، وكبير يعمـل، ويأمل أن يختم حياته بما يرضي ربه... وهل هناك أرضى لله من جهاد في سبيله، وقائد المجاهدين (ﷺ) يقول: «**لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها**»[1].

والمسلمون هم بين من مَنَّ الله عليه، فقدّر عيشه وجهًا لوجه مع أعداء الله، فهو في معركة فعلية ميدانية مسـتمرة، يتمنى لقاء ربه في شـهادة تطال كل جسده، وبين مسـلم يتوق للشهادة، يرقب عن بعد سـكنات المجاهدين وحركاتهم، يتحـرق للحاق بهم، فيقعده عن مراده مرض مسهد، أو هرم مقعد، أو فقر مجهد، أو عدو قاطع للطريق، أو ظالم يحبسه في داره.

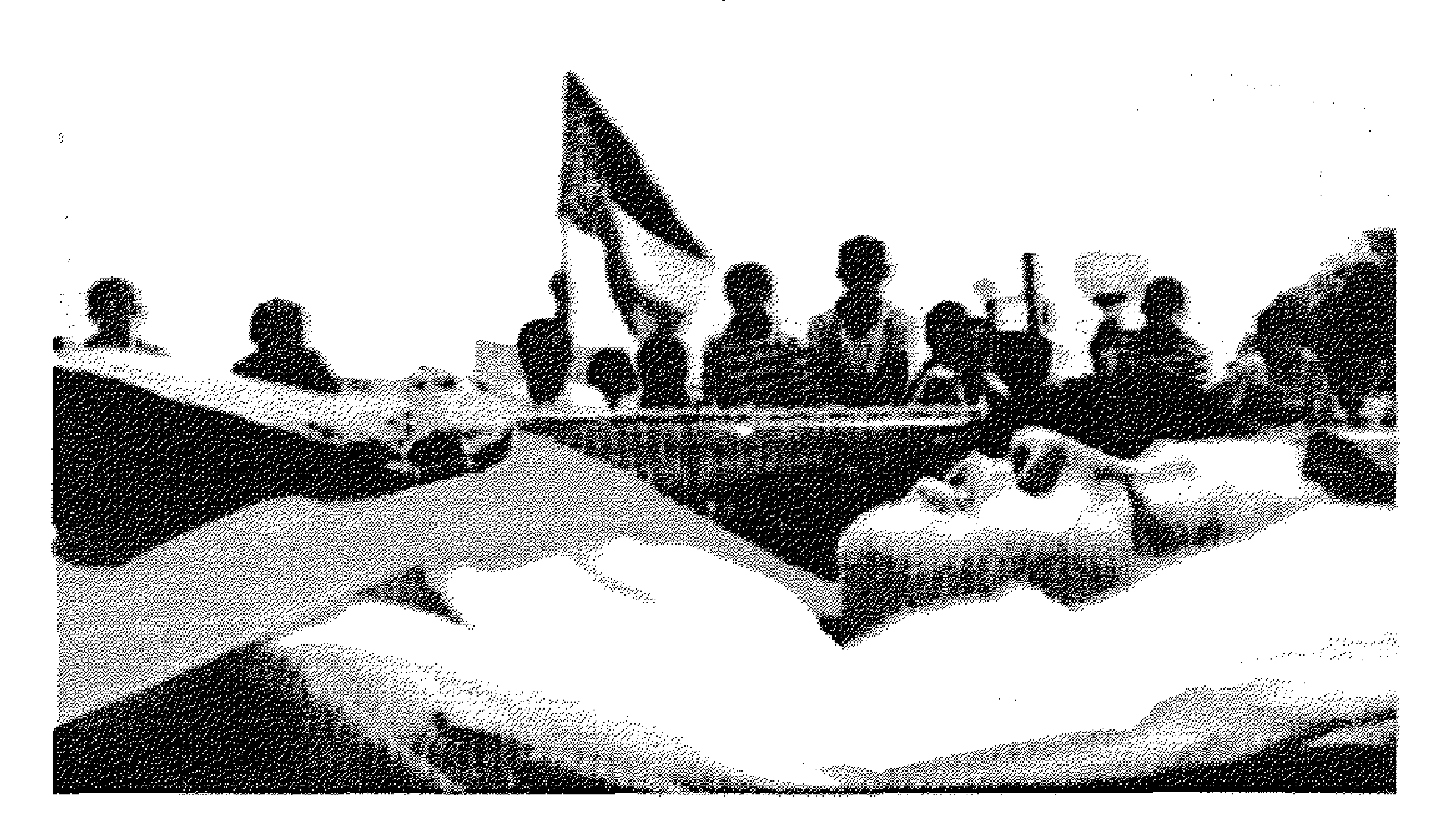
ولكـن لطـف الله ورحمتـه بنا نحـن، الذين كبلتنـا القيود، وحالـت موانـع ذاتية وخارجية بيننا وبين ما نشـتاق إليـه، من جهاد حقيقي ومباشـر، ونصرة فعلية لإخواننا.. لطفَ الله بنا أن لم يجعل سـلطانًا لسـايكس ولا بيكو على نوايانا، فالنيـة طليقة، لا تقف أمامهـا السـدود ولا الحـدود والقيود، التي تكبل الأجسـاد، فهي عمل قلبي، والقلب لا سلطان عليه لغير صاحبه.

فمهما ضعفت الأجسـاد، وخفتت الأصوات، وحوصرت بحدود

---

(١) رواه مسلم.

وهميــة مصطنعــة، فقلوب المســلمين في أرجــاء الأرض حرة طليقة، متعلقــة بمســرى نبيها(ﷺ)[1]، تتوجه إلى الله في الســراء والضراء، أن يرزقها شهادة تضمها إلى قافلة العز والكرامة، قافلة الشهداء، وتلحقها في سجل الخالدين ... فنم قرير العين يا شهيد.



الشهيد النائم

(١) قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١).

شاهد وشهيد

وبعد:

فإننا نخلص مما سبق إلى جملة من الحقائق التي لابد من التذكير بها والتركيز عليها، وهي:

أولها: إن لله في خلقه شؤونًا لا يعلمها إلا هو، ويُصرِّفها كيف يشاء. ولا نعلم منها إلا اليسير، رغم تقدم العلوم وتراكم المعارف. وكل مخلوقاته تسبح بحمده وهي طوع أمره ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ (المدثر: ٣١).

ثانيها: إن الشهادة اصطفاءٌ، واختيارٌ، واتخاذٌ، بل وتكريمٌ من الله (ﷻ) للخُلَّص من عباده المجاهدين، فهو وحده المطلع على نواياهم، وعظيم تضحياتهم وجهودهم. فهم مكرمون في الدنيا والآخرة. وما حفظ أجسادهم إلا غيض من فيض الامتيازات الربانية التي أعدها لهم.

ثالثها: شهادة الميكروبات على كرامات الشهداء هي شهادة صامتة، صادقة، بليغة، تصدر من أصغر ما عُرف من جنود الله لأوليائه المخلصين. تدلنا على تكريمه لهم وحُسن قبولهم عنده، تقديرًا لصنيعهم والتزامهم بأوامره ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ (الحاقة: ١٢).

رابعها: هذه الشهادة، بل هذا التكريم الإلهي للشهداء، هو

دليلٌ على صواب الطريق وصحة المسيرة، فيجب أن يكون دافعًا لمزيد من العمل والتضحية؛ طمعًا فيما عند الله - تبارك وتعالى - لا دافعًا إلى الركون والدعة والتباطؤ.

خامسها: ونحن أمام شاهد وشهيد. شاهد دقيق قام بواجبه طاعة لخالقه وتنفيذًا لأوامره، وشهيد عظيم لبى نداء ربه دفاعًا عن دينه. فإن عَجَزْنا عن أن نكون شهداء، فلا أقل من أن نُدلي بشهادة صدقٍ تُغْدِقُ مالاً ودعاءً وثناءً وتكريمًا لهؤلاء، إعجابًا بما يصنعون.

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (يوسف:٢١).

والحمد لله رب العالمين.

المراجع العربية

١- آيات الرحمن في جهاد الأفغان، الدكتور عبد الله عزام، الطبعة الثالثة - مكتبة المنار - الأردن، عام ١٩٨٧م.

٢- أصول الطب الشرعي، الدكتور محمد أحمد سليمان، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م.

٣-التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة - شمس الدين أبو عبد الله الأنصاري القرطبي، دار الكتب العربية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٨م.

٤- الترغيب والترهيب، الإمام الحافظ زكي الدين المنذري، دار الفكر، ١٩٨٨م.

٥- تهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون - مؤسسة الرسالة، دار البحوث العلمية - الكويت ١٣٧٤هـ.

٦- تهذيب كتاب مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق في فضائل الجهاد - تهذيب الدكتور صلاح الخالدي - الطبعة الأولى - دار النفائس - عمان ١٩٩٩م.

٧ - الجهاد، عبد الله بن المبارك - تحقيق نزيه حماد - الدار التونسية للنشر، ١٩٧٢م.

٨ - الديباج، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي - تحقيق أبي إسحاق الحويني - الطبعة الأولى - دار ابن عفان - السعودية،

١٩٩٦م.

٩ - السبيل - عدد ٥١٢، تاريخ ٤/ ١٠/ ٢٠٠٣م.

١٠ - شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي - المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٣٩١هـ.

١١- الشهادة والشهداء.. أحكام الشهيد في الشريعة الإسلامية - جمال سليم الداموني - منشورات مجلة فلسطين المسلمة، الطبعة الأولى - لندن، ٢٠٠٠م.

١٢- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨٧م.

١٣ - صفة الصفوة، عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج - تحقيق الشحات - دار المنار، ٢٠٠٣م.

١٤ - صفوة الصفوة، عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج - تحقيق: محمود فاخوري والدكتور رواس - دار المعرفة - بيروت، ١٩٧٩م.

١٥ - صور مضيئة من حياة الشهداء ووصاياهم - محمد فايز - الطبعة الأولى - دار ومكتبة الحامد - عمان، ٢٠٠٤م.

١٦ - الطب الشرعي - الدكتور زياد درويش - منشورات جامعة دمشق - الطبعة الثانية، ١٩٩٦م.

١٧ - الطب القضائي وآداب المهنة الطبية، الدكتور ضياء نوري حسن - وزارة التعليم العالي والبحث العلمي - الجمهورية العراقية، ١٩٨٥م.

١٨ - الطيور الخضر، نماذج مضيئة من شهداء الانتفاضة المباركة في فلسطين، حافظ الكرمي - توزيع دار الفرقان - عمان، ١٩٩٣م.

١٩ - ضرورة العلم.. دراسات في العلم والعلماء، ماكس بيروتز - ترجمة وائل أتاسي والدكتور بسام معطراني - عالم المعرفة رقم ٢٤٥ - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، ١٩٩٩م.

٢٠ - عجائب الميكروبات السبع، الدكتور عبد الحميد القضاة - الطبعة الأولى - عمان، ٢٠٠٤م.

٢١ - لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور - الطبعة الأولى - دار صادر - بيروت، ٢٠٠٠م.

٢٢ - مختصر صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي. الطبعة الثالثة - بيروت، ١٩٧٧م.

٢٣ - مصنف عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني - تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي - المكتب الإسلامي -

بيروت، ١٤٠٣هـ.

٢٤ - مقدمة في ميكروبيولوجيا التربة، مارتن الكسندر - نيويورك، ١٩٨٢م.

٢٥ - ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، الدكتور عماد الدين خليل - الطبعة الثانية - الدار العلمية - بيروت، ١٩٧١م.

٢٦ - المنجد في اللغة والأعلام، مردنان توتال - الطبعة ٢٨ - دار الشرق - بيروت، ١٩٨٦م.

٢٧ - النمل الأبيض (الأرضة) - منشورات وزارة الزراعة الأردنية - المركز الوطني للبحوث الزراعية ونقل التكنولوجيا - المهندس عبد القادر قاسم والمهندس مروان عبد الوالي - مديرية نقل التكنولوجيا والتدريب، ٢٠٠٣م.

المراجع الإنجليزية

1. Clinical dermatology by J. Hunter, J. Sauin and Mark dahl, 2002.
2. Medical Microbiology by Jawetz, Melink and Adelberg, 20th edition, 1995.
3. Biocorrosion website, interact@port.ac.uk - updated July 2002.
4. MIC of Stainless Steel as model, system to study Metal - Microbe interactions corrosion by Lewan Dawski and Hamilton, 12002 14-.
5. Rats, Lice and History by Hans Zinsser, 1935.
6. Scientific Nature by Zinard and Steiven, 2003.
7. Life and the immune system. Scientific American, a special issue, New York 1994.
8. Soil Microbiology by S. A. Waksman, 1957.
9. Introduction to Soil Microbiology by Martin Alexander London 1961.
10. Forensic pathology by Bernard knight, 2nd edition, London 1996.

11. Simpson's Forensic Medicine by Bernard Knight, 11th edition, London 1995.
12. Microbiology, an introduction by Tortora, Funke and Case, 7th edition, New York, 2003.
13. The Bacteriology of normal skin, by Kligman, in Skin bacteria and their role in infection. Edited by Maibach and Hildick - Smith, New York 1965.

المحتويات

صدر من سلسلة المشروع الإصلاحي للإمام البنا

١- التجديد في المشروع الحضاري للإمام حسن البنا	د. محمد عمارة
٢- كلمات مرتجلات	المستشار عبد الله العقيل
٣- قراءة في الفكر السياسي للحركة الإسلامية	المستشار طارق البشري
٤- خصائص الشخصية الحركية للصحوة الإسلامية	أ. فتحي يكن
٥- التربية السياسية عند الإمام البنا	د. يوسف القرضاوي
٦- ملامح الفكر السياسي عند الإمام البنا	أ. عدنان أبو عامر
٧- الفكر التربوي والحضاري عند الإمام البنا	د. عبدالرحمن النقيب، د. سيد دسوقي حسن

صدر من سلسلة رسائل الدعاة

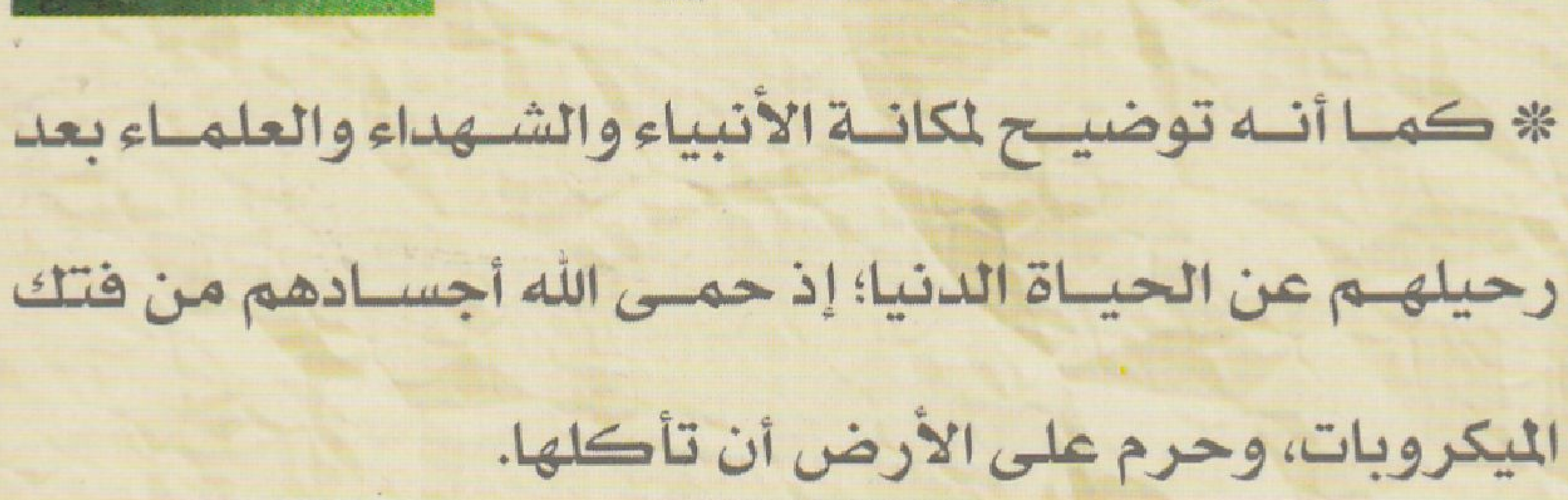
١- قطوف تربوية حول رحلة الحج (رؤية حضارية)	د. حمدي شعيب
٢- قواعد في تصحيح الحديث وتضعيفه	د. عبد الغني التميمي
٣- الغرب والإسلام.. افتراءات لها تاريخ	د. محمد عمارة
٤- المفاهيم الأساسية للدعوة الإسلامية في بلاد الغرب	المستشار الشيخ/ فيصل مولوي
٥- حسن البنا الرجل القرآني	روبير جاكسون - ترجمة أ. أنور الجندي
٦- الأصول العامة لمناهج المحدّثين	د. عبد الغني التميمي
٧- السلام على أهل الكتاب	المستشار الشيخ/ فيصل مولوي
٨- فقه السجون	الشيخ سيد عسكر
٩- أخلاق النبي في حروبه	د. عبد الحليم عويس
١٠- الابتلاء بين المحنة والمنحة	أ. أحمد زهران
١١- الأمة الوسط	د. أحمد العسال
١٢- بيوت الخليل عليه السلام	أ. عبد القادر أحمد عبد القادر
١٣- الحج رحلة حب	د. علاء الدين محرم
١٤- رسالة المسجد	المستشار عبد الله العقيل
١٥- أدب الحوار والمجادلة	المستشار عبد الله العقيل
١٦- منهج الإسلام في الدعوة إلى الله	المستشار عبد الله العقيل
١٧- منهج القرآن في تربية الأمة	المستشار عبد الله العقيل
١٨- خواطر رمضانية	الإمام الشهيد حسن البنا
١٩- الإعلام وهوية الأمة	المستشار عبد الله العقيل
٢٠- الطريق إلى وحدة إسلامية	المستشار عبد الله العقيل

كتب عامة

١- اقتصاد المشاركة	د. جمال لعمارة
٢- الحق المر	الشيخ محمد الغزالي
٣- فتاوى علماء المسلمين في تحريم التنازل عن أي جزء من فلسطين	مركز الإعلام العربي
٤- التعددية السياسية «رؤية إسلامية»	مركز الإعلام العربي
٥- المطبخ مملكة الصحة	د. حسني حامد حميدة
٦- السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط	كمال الهلباوي
٧- الزواج العرفي	أيمن حمودة
٨- مقومات النصر وملحمة الملأ من بني إسرائيل	صالح الحديدي
٩- ثقافتنا في إطار النظام العالمي الجديد	لواء أ/ح /د. فوزي محمد طايل
١٠- زوجات لا عشيقات (التعدد الشرعي ضرورة العصر)	حمدي شفيق
١١- حسبكم الله ونعم الوكيل	شعر د. جابر قميحة
١٢- أدب المريض	د. عبد الغني التميمي
١٣- الإيجابية .. قوة الدفع في الشريعة الإلهية	أ. عبد القادر أحمد عبد القادر
١٤- ١٢٠ هدية لك في رمضان	د. صهباء بندق
١٥- فقه الظواهر الدعوية في ضوء السنن الإلهية	د. حمدي شعيب
١٦- حلقات تحفيظ القرآن الكريم.. رؤية منهجية	أ. أسامة عامر
١٧- ٢٥٠ بابًا للخير في رمضان	أ. أحمد زهران
١٨ - معركة الحجاب والصراع الحضاري	د. حلمي محمد القاعود
١٩- الكفارات والمكفرات	أ. ياسين طاهر الأغا
٢٠- مع المستشار عبد الله العقيل في ترجماته	د. جابر قميحة
٢١- أدب الطبيب	د. عبد الغني التميمي
٢٢- ١٤ رسالة إلى الصائمين	منتصر محمد عفيفي
٢٣ - ذكرياتي مع دعوة الإخوان في المنزلة دقهلية	د. جابر قميحة
٢٤ - تكنولوجيا الدعوة الإسلامية	السيد محمد مرعي

كرامات الشهداء والميكروبات

* جهد علمي متميز، قام به العالم الدكتور عبد الحميد القضاة، وكشف من خلاله عن المهمة التي خلق الله الميكروبات من أجلها، فلولاها لامتلأت الأرض ببقايا النباتات والحيوانات، وجثث الآدميين.



* كما أنه توضيح لمكانة الأنبياء والشهداء والعلماء بعد رحيلهم عن الحياة الدنيا؛ إذ حمى الله أجسادهم من فتك الميكروبات، وحرم على الأرض أن تأكلها.

* كما يوضح جانبًا من الإعجاز العلمي في آيات القرآن الكريم التي تتعلق بعالم الميكروبات، مدعومًا بالصور الموضحة لذلك الإعجاز، الذي يؤكد أن هذا القرآن هو كلام الله المعجز الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٢).

الناشر



يطلب من مركز الإعلام العربي:
٢٠٠ ش الهرم - الجيزة - مصر ص.ب: ٩٢ الهرم - الجيزة - مصر
ت: ٣٧٨١١١٩٣ - ٣٧٨١١١٩٤ - ف: ٣٧٨١١١٩٥ - التوزيع: ٣٧٤٤٥٤٥٥/٠٠٢٠٢ - ٠٠٠٢٧٠٢٥
البريد الإلكتروني: mediacenter55@hotmail.com
الموقع على شبكة الإنترنت: www.amc-eg.com